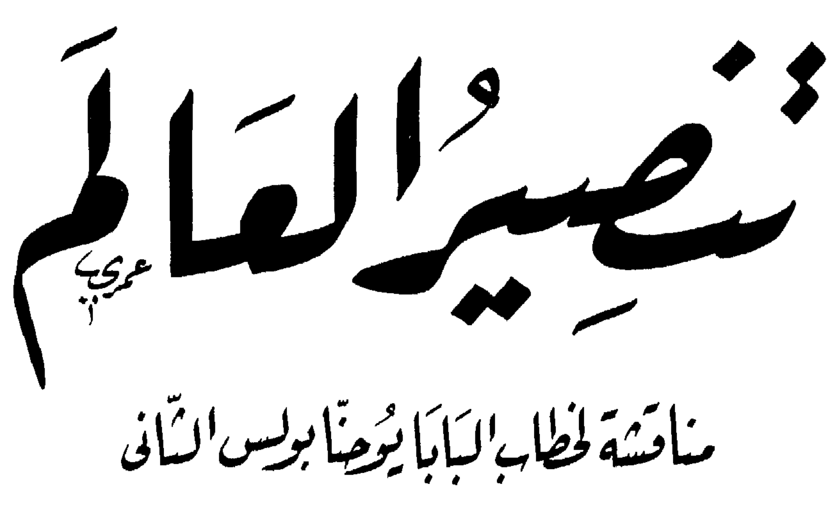


الدكتورة زينب عبد العزيز
أستاذ الحضارة ورئيس قسم فرنسى
بكلية الآداب - جامعة المنوفية



تنصير العالم

الطبعة الأولى

١٤١٥ هـ - ١٩٩٥ م

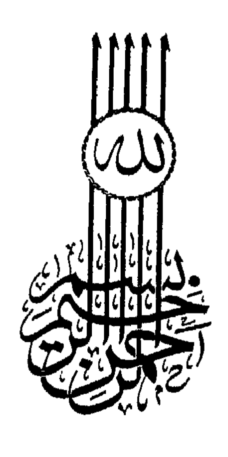


دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع - المنصورة ش.م.م

الإداره والمطابع : المنصورة ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت ٣٤٢٧٢١ / ٣٥٦٢٢٠ / ٣٥٦٢٣٠

المكتبة : أمام كلية الطب ت ٣٤٧٤٢٣ ص ب ٢٣٠ فاكس ٣٥٩٧٧٨



«من يعرف الحقيقة ولا يجاهر بها بأسلوب عنيف، فهو يتواطأ مع الكذابين والمزيفين...»

شارل پيجى

(شاعر فرنسى)

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

يمثل المجمع المسكونى الفاتيكانى الثانى (١٩٦٥م) نقطة تحول جذرية بالنسبة للمجامع السابقة، فهو يعد بمثابة أول مجمع هجومى تتخذ فيه عدة قرارات لا سابقة لها فى التاريخ، ومنها: توحيد كافة الكنائس؛ وتوصيل الإنجيل لكافة البشر، وهى الصيغة المعلنة آنذاك لعملية تنصير العالم؛ كما نصّ على الاستعانة بكافة المدنيين المسيحيين إلى جانب رجال الكنيسة المختصين لتنفيذ هذا المخطط، والاستعانة بالكنائس المحلية، والعمل على غرس كنائس فى البلدان التى لا توجد بها هذه المنشآت. . .

كما تضمنت القرارات: تبرئة اليهود من دم المسيح، وهى مصالحة سياسية بحتة؛ والاتفاق على ضرب اليسار فى عقد الثمانينات؛ واقتلاع الإسلام فى عقد التسعينات ـ حتى تبدأ الألفية الثالثة وقد تم تنصير العالم تحت لواء كاثوليكية روما. .

وقد تم انتخاب البابا يوحنا بولس الثانى ـ البولندى الأصل ـ لتسهيل تنفيذ هذا المخطط الذى بدأ بضرب حلف وارسو وإنشاء حزب «تضامن» فى بولندا، وقد واكبته عملية إحياء الكنيسة الأرثوذكسية الروسية واختلاق «العام المريمى» ـ نسبة إلى السيدة مريم العذراء ـ وتم ضرب اليسار بالاستعانة بالعملاء المحليين، وسقط الاتحاد السوفيتى عام١٩٩١م. وتتم الآن محاولة اقتلاع الإسلام على الصعيد العالمى، وإن كان بحجج ووسائل مختلفة، الأمر الذى يفسر التباطؤ الرهيب فى حل مشكلة البوسنة، خاصة إذا ما قورنت بالسرعة الخاطفة لدك القوى العسكرية والمدنية للعراق، ويفسّر نفس التباطؤ فى نزع الكيان الصهيونى من فلسطين المحتلة، كما يفسر ذلك الصمت الحضارى المخزى حيال تهديم المنشآت الإسلامية الواقعة فى الساحات التى تدور عليها هذه المؤامرات.

وفى عام١٩٨٢م أعلن البابا يوحنا بولس الثانى صراحة عن ذلك المخطط المضغم فى منتصف الستينات، ليطالب صراحة بضرورة «إعادة تنصير العالم»! واتخذ هذه العبارة محوراً أساسيا لكافة خطبه التى أدخل فيها عبارة «الحوار»، والحوار فى مفهومه يعنى: «فرض الارتداد لاعتناق المسيحية». . فمثلما استخدم نيافته لعبة «إظهار» العذراء لضرب اليسار، ولعبة «الروح القدس» لتوحيد الكنائس، يستخدم عبارة «الحوار» حتى يتم اقتلاع الإسلام بدون أية مواجهة مباشرة بقدر الإمكان.

والتضافر الحالى بين السلطة الكنسية والسلطة السياسية ـ رغم العداء والصراع الممتد

بينهما ـ قد تم لضرب البدائل التى تهدد كيانهما، أى حتى لا يكون هناك نظام سياسى بديل عن الرأسمالية، ولا يكون هناك دين آخر بديلا عن المسيحية.. وبذلك يتم فرض النظام العالمى الجديد القائم على النظام السياسى الواحد والنظام الدينى الواحد!

وهذا البحث عبارة عن دراسة تحليلية موجزة للخطاب الرسولى الأخير الذى أعلنه البابا يوحنا بولس الثانى فى شهر أكتوبر ١٩٩٣م. وقد اهتممنا بعرضه وتقديمه لجمهور المسلمين حتى يكونوا على دراية بما يحاك لهم، وبما يحيط بهم من حرب صليبية غير معلنة، تعتمد على كسب الوقت بالتسلل فى كافة المجالات وبكل الآليات، كما نقدمه للإخوة المسيحيين فى مصر وفى العالم الإسلامى حتى يكونوا على علم بما يحاك، وحتى لا يقعوا في هاوية التواطؤ جهلا أو عن عمد، فليس المطلوب من أحد أن يغيّر دينه، لكن الذى نطالب به هو حق كافة الشعوب وكل الحضارات والأديان التوحيدية وغير التوحيدية فى أن تعيش بنفس الحقوق والقوانين الإنسانية والحضارية.

إن الغرب يعانى إجمالا من أزمة مزدوجة تتسم بالإفلاس الحضارى وبالإفلاس الدينى، وبدلا من معالجة المشاكل بشكل إنسانى موضوعى، يقوم باقتلاع البدائل وفرض أنسقته المتهالكة؛ لذلك نضم صوتنا إلى كل الذين يدينون هذا الوضع فى جميع أنحاء العالم، لنطالب بأن يكفّ الغرب عن عمليات الاقتلاع والمحاصرة بغية الإبادة، التى تتنافى مع كافة الشرائع، وبخاصة مع رسالة السيد المسيح المطالبة بالحب، والتضحية بالذات من أجل الآخرين.. ونطالب أن يقوم الغرب بتغيير موقفه ومفاهيمه ليكون الحوار تكامليا بين الحضارات.



الباب الأول

«روعة الحقيقة»
عرض وتقديم

روعة الحقيقة

فى الخامس من شهر أكتوبر ١٩٩٣م، قام الكاردينال راتزنجر، رئيس رهبانية عقيدة الإيمان، بإعلان الخطاب الرسولى الجديد على العالم أجمع، وهو الخطاب العاشر للبابا يوحنا بولس الثانى منذ توليه منصب البابوية فى عام ١٩٧٨م .

والبابا يوحنا بولس الثانى لايعد مجرد شاهد على الأحداث السياسية والاجتماعية، وإنما هو من المحركين الأساسيين لها ، فلقد أصبحت من صفاته المعروفة « أنه من الذين ساهموا بطريقة عملية فى انهيار الشيوعية » (جريدة « فيجارو » الفرنسية فى ٦/ ١٠/ ١٩٩٣م). . وهذا الرجل الدينى الذى طاف العالم بثيابه البيضاء لإحياء النزعة الدينية المسيحية وتنصير العالم ـ وفقا للمذهب الكاثوليكى ـ يتناول فى خطابه الجديد، المعنون: «روعة الحقيقة»، معظم المسائل الشائكة المتعلقة بأخلاقيات العصر الحديث، وإن كان المرمى الحقيقى للخطاب هو ما ألمّ بالكنيسة من تصدعات فى هيكلها أو بسبب العقيدة ذاتها، وذلك من خلال تساؤل طويل حول الحقيقة وعلاقتها بالحرية، لينتهى إلى أن «ضمير الفرد يسمح له باكتشاف الله من خلال الدين المنزّل». . وهنا لابد من أن نسارع بتحديد أن الدين المنزل فى نظر البابا يوحنا بولس الثانى ليس إلا الكاثوليكية وحدها ـ رغم كل ما اعتراها من تبديل وتحريف على مر العصور.

ومثلما اعتاد أن يفعل دوماً فى كافة رسائله الدورية أو فى خطبه، فقد قام البابا بتخطى الكاثوليك ليوجه حديثه إلى كل الذين يعيشون على الكرة الأرضية من أجناس وعقائد مختلفة. . فالخطاب الرسولى ـ فى نظر الفاتيكان ـ هو كلمة موجهة إلى الكافة، خاصة بعد أن أعلن البابا عن هدفه المستقبلى منذ عام ١٩٨٢م، والذى لخصه فى عبارة واحدة، هى: «إعادة تنصير العالم» ـ وكأن العالم بأسره كان مسيحيا فى يوم من الأيام!!

وفى الوهلة الأولى، يبدو من هذا الخطاب وكأن أهم ما يشغل البابا فى هذا العقد الأخير من القرن العشرين هو مسألة ابتعاد العالم الغربى عن الأخلاق والقيم، بل «التخلى عنها بصورة مزعجة، فالنازية والشيوعية وأية صور أخرى من صور الضلال البشرى التى اخترعها المرتزقة تؤدى بالإنسان إلى اليأس. . كما أن البحث عن السعادة لا يؤدى إلى شىء؛ لأن العالم غارق فى العنف والفساد والطموحات المجنونة لطرف أو لآخر»؛ لذلك يتغنى البابا بروعة الحقيقة، مبشرا بالإنجيل ـ بلغة رجل العصر ـ ليفرضه

على العالم.

ولقد تم الإعلان عن هذا الخطاب الرسولى منذ عام ١٩٨٧م، أى أن صياغته قد استغرقت ست سنوات، مما يشير إلى كل ما تعرض له هذا النص من جهد وتوثيق ومشاورات حتى يصل إلى الأسلوب الذى يسمح بنشره فى صياغة لبقة، دون فتح الكثير من الجبهات المعارضة.. وعلى الرغم من قيام البابا بتوجيه حديثه إلى العالم أجمع، إلا أنه فى حقيقة الأمر موجه أساساً إلى كافة أساقفة الكنيسة الكاثوليكية ليجعل منهم أدوات قمع مباشرة تتصدى لأية انشقاقات أو خلافات عقائدية أو سلطوية تحيد عن رؤيته الشخصية.

والخطاب الرسولى عبارة عن رسالة دورية يقوم البابا بتوجيهها إلى مجمل الكنائس أو إلى بعضها، وفقا لضرورة الموقف، بموجب رعايته العليا للتعليم والتوجيه الدينى. وعلى الرغم من أنها تعد من الوثائق الرسمية، إلا أنها لا تتضمن بالضرورة تعريفاً عقائدياً أو أخلاقيا جديداً. وإذا ما تضمنت ذلك، فلابد للبابا من أن يوضحه ويحدده صراحة.

وأكثر ما يميز هذه الرسائل البابوية أنها تحمل علامة عصرها أكثر من أى نص آخر، كما تشير إلى الظروف التى أدت إلى كتابتها أو الضرورة التى اقتضتها، وتتناول الرد عليها. وقد بدأ استخدام عبارة «الخطاب الرسولى» هذه (encyclique) منذ القرن السابع الميلادى، وأصبحت من التقاليد الكنسية فى القرن الثامن عشر. وتُعرف الرسالة أو تُعنون بأول كلمتين من نصها الأصلى، وهو اللاتينية.

يقع خطاب «روعة الحقيقة» فى مائة وإحدى وتسعين صفحة، وقد قامت أربع دور للنشر فى فرنسا بإصداره، وإن اهتمت كل دار منها بأن تتميز عن الأخرى بنوعية مختلفة من التحليل والتعليق الدينى السياسى والاجتماعى كما تمت ترجمته من اللاتينية إلى سبع لغات حتى يتم نشره على العالم.

ويتكون هذا الخطاب الرسولى من مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة، تتضمن على التوالى: «المسيح والإجابة على المسألة الأخلاقية» (٣٠ صفحة)، وهنا يؤكد البابا على ضرورة اتباع الوصايا العشر كأساس لأية تجربة أخلاقية. «الكنيسة وضرورة التفريق بين بعض الاتجاهات فى اللاهوت الحالى» (٨٥صفحة)، ويقصد بها التصدى لكل ما يخرج عن الإطار الذى تفرضه الكنيسة. ثم: «الصالح الأخلاقى فيما يتعلق بحياة الكنيسة وحياة العالم» (٥٣ صفحة)، ويرى ينافته أنها مسألة شديدة الحيوية بالنسبة للثقافة التى بعدت عن المسيحية والتى أصبحت تهدد الإنسان بالدمار الذاتى بمحاولتها الفصل بين

الإيمان والأخلاق، وقد أكد البابا على أن الاثنين متوازيان ولا ينفصلان، أما الخاتمة فقد أهداها إلى السيدة مريم العذراء «أم الرحمة».

وفى الأسطر الأخيرة من هذه الرسالة، يوضح البابا يوحنا بولس الثانى أنه قد قام بالتوقيع على هذا النص بتاريخ ٦/٨/١٩٩٣م، وهو تاريخ يشير إلى العيد المسمى «يوم تجلى المسيح»، ففى ذلك اليوم تحتفل الكنيسة الكاثوليكية باللحظة التى تجلى فيها السيد المسيح «بكل روعته على جبل تابور، محاطا بكلٍ من موسى وإيليا».. ومن المعروف أن هاتين الشخصيتين تمثلان الكشف الإلهى فى العهد القديم.

ومما له مغزاه، أن يختار نيافة البابا لحظة تاريخية تربط بين اليهودية والمسيحية فى تزامن واحد، أى أنها تشير إلى ترابط بعينه يجمع بينهما، بل لقد جعل من يسوع «موسى جديداً» فى الفصل الأول من الخطاب!! كما قام فى نفس الوقت بإهداء هذه اللحظة «بتجلياتها» إلى السيدة العذراء «أم الرحمة».

وإذا كان ما تقدم يعد بمثابة تقديم موجز لعناوين هذا الخطاب الرئيسية، فلابد من تناوله بشىء من التفصيل حتى يتمكن القارئ من إدراك ما يتعرض له من موضوعات. وكلها نقاط تعد - برمتها - كتوضيح لمعالم الطريق الذى يسلكه هذا الخطاب «لفرض قيود جديدة، جاهدت الصياغة الطويلة المدى للتخفيف من وضوحها أو من وقعها» - على حد قول أحد المعلقين (جريدة الموند فى ٦/١٠/١٩٩٣م).

وأيا كان الأمر، فإنها المرة الأولى التى تقوم فيها الكنيسة فى روما بعمل بيان بمثل هذا الطول، لشرح المبادئ الأساسية لوجهة نظرها فى فترة زمنية معينة.

ويبدأ الخطاب بالعبارة التالية: «إن روعة الحقيقة تنعكس فى كل أعمال الخالق، وخاصة فى الإنسان الذى خُلق على صورة الله وتشبيها له (تكوين ١:٢٦). إن الحقيقة توضح الذهن وتعطى شكل حرية الإنسان الذى يتمكن بفضلها، من التعرف على الرب ليحبه..».

أى أنه منذ العبارة الأولى يجد القارئ نفسه حيال منظور تبشيرى، فالخطاب يرمى إلى الربط بين الناس جميعا فى بحثهم عن معنى الحياة، ومن هنا فهو لا يتضمن عرضاً لمجمل الأخلاقيات المسيحية الكاثوليكية - كما تم الإعلان عن ذلك فيما مضى - وإنما يتناول بعض المسائل الأساسية للتعليم الأخلاقى للكنيسة، رداً على كل تلك التشككات المثارة لا فى المجتمع المدنى وحده، وإنما داخل الكنيسة ذاتها والتى تمثل الأزمة الحالية التى يحاول البابا أن يدرأ تصدعاتها.

* وتتعرض المقدمة لأربع نقاط أساسية، يمكن تلخيصها فيما يلى:
- تعريف الكنيسة والدور الذى تقوم به.
- موضوع الخطاب.
- توجيه الخطاب إلى الأساقفة.
- ثم ارتباط هذا الخطاب بكتاب التعليم الدينى الكاثوليكى الجديد، الصادر فى نوفمبر ١٩٩٢م .

وإذا تناولنا هذه المحاور الأربعة بشىء من التفصيل، نرى أن البابا يبدأ بتحديد معنى الكنيسة، فهى «جسد المسيح»، و«شعب الله وسط الأمم».

ثم ينتقل إلى دورها، وكيف أنها مدركة للتحديات الجديدة للتاريخ وللجهود التى يبذلها الناس بحثا عن معنى الحقيقة؛ لذلك فهى تقدم للكافة تلك الإجابة الناجعة عن حقيقة يسوع المسيح وإنجيله... كما أنها دائمة الإدراك بأن واجبها - فى كل لحظة - هو أن تقوم بفحص معالم الأزمنة وتفسيرها على ضوء الإنجيل، حتى يتسنى لها الإجابة - بشكل يتفق وكل جيل - على الأسئلة الأزلية للناس حول معنى الحياة الحالية والقادمة، وحول علاقتها المتبادلة.

وبما أن «الكنيسة متخصصة فى الإنسانية»، «لذلك فهى تضع نفسها فى خدمة كل فرد وفى خدمة العالم بأسره»؛لأنها تعلم « أن المسألة الأخلاقية تمس كل الناس عمقا، وتخص كل الناس، حتى الذين لا يعرفون المسيح وإنجيله، بل ولا يعرفون الله».. كما أنها تعلم بالتحديد «أن طريق الخلاص، فى مجال الحياة الأخلاقية، مفتوح للكافة». وذلك نفسه هو ما سبق أن أوضحه المجمع المسكونى الفاتيكانى الثانى - المنعقد فيما بين ١٩٦٣م - ١٩٦٥م - إذ نص على ما يلى:

«إن الذين يجهلون إنجيل المسيح وكنيسته، دون ذنب منهم، لكنهم مع ذلك يبحثون عن الله بقلب صادق، ويجتهدون بتأثير من فضله، فى التصرف بصورة تؤدى إلى تحقيق إرادته مثلما يمليه عليهم ضميرهم - إن هؤلاء يمكنهم التوصل إلى الخلاص الدائم... وإلى هؤلاء بعينهم، الذين دونما خطأ منهم، لم يتوصلوا بعد إلى معرفة بعينها بالله، لكنهم يعملون ببركة الله على أن تكون حياتهم مستقيمة فإن الرعاية الإلهية لا ترفض المساعدات اللازمة لخلاصهم. وفعلا، إن كل ما هو طيب وحقيقى لديهم، فإن الكنيسة تعتبره كإعداد إنجيلى وهبة من الذى يضىء كل إنسان لكى يحصل فى النهاية على الحياة».

أما عن موضوع الخطاب، فيقول البابا: إن البابوات يحاولون منذ قرنين اقتراح تعليم أخلاقى جديد حول الملامح المتعددة لمختلف أوجه الحياة الإنسانية، وكيف أنهم يقومون باسم المسيح وباسم السلطة التى خولها لهم، بتشجيع أو إدانة أو تفسير أو المساهمة فى تقديم فهم أوضح للمتطلبات الأخلاقية فى مجال الجنس والأسرة والحياة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

ثم يوجه البابا الخطاب إلى إخوانه المبجلين فى الولاية على الناس، والذين يتحملون معه مسؤولية الحفاظ على «العقيدة سليمة»، بغية تحديد بعض «الملامح العقائدية التى تعد حاسمة لمواجهة ما يسمى بلا شك بأزمة حقيقية، والمصاعب الجسيمة التى تؤدى إليها بالنسبة للحياة الأخلاقية للأتباع ووحدة الكنيسة، أو بالنسبة لحياة اجتماعية عادلة ومتضامنة».

ويفصح البابا عن هدفه من هذه الرسالة قائلا فى نفس هذه المقدمة إنها: «إعادة قراءة لمجمل التعاليم الأخلاقية للكنيسة، بغية التذكرة ببعض الحقائق الأساسية للعقيدة الكاثوليكية التى يُخشى عليها من التحريف، أو من أن تستبعد فى السياق الحالى للأحداث، فلقد ظهر موقف جديد فى الأمة المسيحية نفسها... ولم يعد الأمر عبارة عن معارضات محدودة من حين لآخر، وإنما وصل الأمر إلى مناقشة عامة أو منهجية للتراث الأخلاقى القائم على مفاهيم أنتروبولوجية وأخلاقية محددة... كما نلاحظ التأثير المقنّع ـ بصورة أو بأخرى ـ لبعض تيارات الفكر التى وصلت إلى درجة الفصل بين الحرية الإنسانية وعلاقتها الضرورية والأساسية بالحقيقة، أى أنه يتم استبعاد المذهب التقليدى لقانون الطبيعة وعالميته والصلاحية الدائمة لتعاليمه، ويصل الأمر إلى أن تعلن هذه التيارات صراحةً أن بعض التعاليم الأخلاقية للكنيسة لم تعد مقبولة»!!

ولا ينجم قلق البابا عن الخلافات العميقة التى يلاحظها داخل أعضاء الكنيسة فحسب، وإنما «من بعض المواقف اللاهوتية المنتشرة حتى فى حلقات البحث وكليات اللاهوت حول مسائل حيوية من الدرجة الأولى، والتى سيكون لها انعكاساتها على الكنيسة وعلى حياة أتباع العقيدة المسيحية بل وعلى الجماعات الإنسانية بأسرها». لذلك يحدد البابا ضرورة اتخاذ موقف متباعد «من بعض تيارات الفكر الحديث، حيث يمتدحون الحرية لدرجة يجعلون منها قيمة مطلقة تصبح معها منبعا للقيم، وهو الاتجاه الذى تسير فيه بعض المذاهب التى فقدت معنى التصعيد أو المذاهب الملحدة بوضوح، إذ أسندوا للضمير الفردى سلطة الحكم الأعلى الأخلاقى الذى يميز بصورة قاطعة لا خطأ فيها بين الخير والشر».

الأمر الذى أدى بالبابا يوحنا بولس الثانى إلى إدانة حاسمة لكافة التيارات الفلسفية والدينية التى قد تقع بطريقة أو بأخرى فى «النسبية الأخلاقية».

وهذه التيارات الثقافية الجديدة التى يهاجمها هى تلك التى تقيّم أخلاقيات الفعل بناء على العواقب التى يمكن توقعها من هذا الفعل، أو بناء على موازنة بين الانعكاسات الخيرة والسيئة له (أى نظريات الاستتباعية والتناسبية). وتزدهر هذه التيارات خاصة فى الولايات المتحدة وفى ألمانيا حول رجال لاهوت من أمثال شارل كارن.Ch curran (من جامعة واشنطن، وقد أدانه الفاتيكان) وجون بويل j.poyle، وتيموثى أوكونيل .T.oconnell.

وينهى البابا المقدمة مشيرا إلى ضرورة الرجوع إلى كتاب «التعليم الدينى الجديد» الذى أصدره فى أواخر ١٩٩٣م، و«الذى يعد نصه بمثابة مرجع مؤكد وأصيل لتعليم العقيدة الكاثوليكية»، موضحا أن هذا الخطاب سيكتفى بتناول بعض المسائل الأساسية للتعاليم الأخلاقية، والتركيز خاصة على التفريق بين المشاكل المتنازع عليها بين المتخصصين فى علم الأخلاق وعلم اللاهوت الأخلاقى.

وذلك الكتاب الذى يشير إليه البابا ـ ويؤكد على ضرورة الرجوع إليه ـ قد أعده نيافته للرد على موقف الكنيسة الهولندية. ففى عام ١٨٧٦م قامت الحكومة الهولندية بإلغاء كليات اللاهوت من الجامعات الحكومية، وأنشأت بدلا عنها أقساما لدراسة تاريخ الديانات، وقامت هذه الأقسام بدراسة الظواهر الدينية، وامتدت العلمنة إلى التعليم الثانوى، وقد تم ذلك ـ كما يوضحه روبيرسرو ـ «لأن التعليم التقليدى للديانة المسيحية لم يعد يتمشى مع واقع الشباب الذى يواجَهْ بالاكتشافات العلمية الجديدة التى لا تتفق والتعاليم الدينية أو الإنجيلية» (tewpete sur l,eglise)، إلا أن الطامة الكبرى التى أدت إلى شقاق جذرى فى الكنيسة الكاثوليكية بين هولندا والفاتيكان كانت نتيجة لصدور كتاب التعليم الدينى الهولندى فى ٩/ ١٠/ ١٩٦٦م، والذى بيع منه أربعمائة ألف نسخة فى غضون بضعة أشهر؛ لأن هذا الكتاب يتضمن خلافات عقائدية جذرية عن العقيدة الفاتيكانية.

* ويدور **الفصل الأول** من خطاب «روعة الحقيقة» حول محورين أساسيين: الوصايا العشر، ودور الكنيسة. الوصايا العشر اعتمادا على ذلك الحوار الدائر بين أحد الأثرياء ويسوع، وكان يسأله عما يعمله ليفوز بالحياة الأبدية؛ والكنيسة، من حيث التأكيد على دورها فى قيادة المجتمع والناس أجمعين!

فالبابا يوحنا بولس الثانى، الذى يرى أن «الحقيقة أهم من الحرية»، و«أن الإيمان المسيحى يتضمن ـ بل يفرض ـ توجيهات وتصرفات لا تعرف الخلط بين الخير والشر مثلما هو حادث حاليا»، يؤكد على أنه يتعيّن على الإنسان اليوم أن يتجه ثانية إلى المسيح ليتلقى منه الإجابات اللازمة والتى تعاونه على كيفية التفريق أو التمييز بين الصالح والضار ليسير فى طريق الحب للآخرين حتى التضحية بالذات. .

ومن خلال عملية تحليلية تعليمية لغوية لذلك الحوار، ومن خلال محاولة لبقة للربط بين المسيحية واليهودية مع التأكيد على سيادة وخلود الكاثوليكية، يرى البابا «أن الوصايا العشر قد أعطيت ثانية إلى البشر عن طريق يسوع، الذى هو موسى جديد، والذى راح يؤكدها نهائيا ويقدمها لنا كطريق وشرط للخلاص». وتنص هذه الوصايا إجمالا على معايير أخلاقية فى صيغة المحرمات والنواهى حباً فى الآخر أو فى القريب، ومنها: «لا تقتل، لا تزنى، لا تسرق، لا تشهد زورا، أكرم والديك، وحب قريبك كما تحب نفسك» (متى ١٩:١٨ ـ ١٩).

ثم يوضح البابا أن هذه الوصايا هى «الشرط الأساسى لحب القريب والوسيلة لتحقيق هذا الحب»، أى أنها «الخطوة الأولى اللازمة للطريق نحو الحرية، وبدايته». ثم يخرج بأن أهم هذه الوصايا هى «الحب، وأنه لا يوجد حب أكبر من أن يعطى الإنسان حياته لأحبائه». . بل إن الحب هو «الوصية الجديدة التى أتى بها يسوع».

ولم يفت البابا التوقف عند أهمية الاختيار والتأكيد عليه، فما زال الشاب يسأل عما يعوزه بعد أن عمل بكل الوصايا، فقال له يسوع: «إن أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء فيكون لك كنز فى السماء وتعال اتبعنى»، موضحا كيف أن عبارة «إن أردت» هذه «تكشف عن ديناميكية خاصة لتطور الحرية فى الطريق إلى نضجها، كما تكشف ـ فى نفس الوقت ـ عن العلاقة الأساسية بين الحرية والشرع الإلهى». وينتهى البابا إلى أن «تصرف يسوع وكلماته وأفعاله ومبادئه تمثل القاعدة الأخلاقية للحياة المسيحية» التى تعد الكنيسة «عمودها ودعامتها الحقيقية».

ومثلما فعل فى المقدمة، يقوم البابا طوال هذا الفصل الأول بتوضيح دور الكنيسة والتأكيد عليه بدءا من أنها «رغبة الله وإرادته»، وأن «هدفها الوحيد هو خدمة ذلك الهدف حتى يتسنى لكل إنسان من خلاله أن يلتقى بالمسيح ويواصل المسيرة معه»، ليؤكد على ضرورة وحدتها: «فلا يجب لأى تمزق أن يهدم التجانس القائم بين الإيمان والحياة؛ لأن وحدة الكنيسة قد جرحت لا بأيدى المسيحيين الذين يرفضون الحقيقة والإيمان فحسب، وإنما بأيدى الذين لا يعترفون بالالتزامات الأخلاقية التى يحثهم عليها

الإنجيل». . كما أن «وحدة الكنيسة تسمح بالحفاظ على الإيمان وعلى الحياة الأخلاقية، وهى المهمة التى عهد بها يسوع إلى الحواريين، كما أنها المهمة التى تتواصل من خلال خلفائهم».

ومن هنا يخرج البابا إلى أنه «يحق للكنيسة وحدها أن تعلن فى أى زمان ومكان عن المبادئ الأخلاقية، حتى فيما يتعلق بالنظام الاجتماعى، كما يحق لها أن تصدر أحكاما على أى واقع إنسانى فى النطاق الذى تتطلبه الحقوق الأساسية للإنسان أو لخلاص البشر». ثم يختتم هذا الفصل الأول بأن «مهمة تفسير كلام الله بصورة أصيلة، سواء أكان مكتوبا أم منقولا شفاهة، تقع على الرئيس الحىّ للكنيسة وحده، الذى يستمد سلطته ويمارسها باسم يسوع المسيح». . أى أنه هو وحده الذى يحق له الأمر والتدبير فى شؤون الدنيا والآخرة ـ علما بأن المسيحية دين سماوى لا تشريع فيه، و«ملكوته» فى السماء وليس فى الأرض. .

* أما **الفصل الثانى**، وهو أطول الفصول الثلاثة وأصعبها فهما ومتابعة ـ من حيث التحاليل فى الصياغة والمواربة فى التعبير ـ فيتناول فيه البابا موضوع «الكنيسة وضرورة التفريق بين بعض الاتجاهات السائدة فى اللاهوت الأخلاقى الحالى». . أى أنه يتناول تطور الدنيا والإنسان والثقافات والميول الفكرية التى لا تروق له، والتى يتعيّن عليه هو وكافة رجال الإكليوس الخاضعين له أن يجدوا حلولا لها. .

ويمكن اختصار هذا الفصل إلى أربعة محاور رئيسية هى: الحرية والشرع؛ الضمير والحقيقة؛ الاختيار الأساسى والتصرفات المحددة أو العيانية؛ والفعل الأخلاقى.

وقبل التعرض لهذه المحاور، يبدأ البابا بانتقاد الوضع الراهن وما أصابه من صراعات خاصة فى المجال اللاهوتى، وشيوع بعض المفاهيم الخاطئة التى لم تعد تتمشى و«العقيدة السليمة»، ومن هنا يتعين عليه «تقديم بعض المبادئ الضرورية للتمييز بين ما هو مخالف للعقيدة، وأن يذكّر ببعض التعاليم الأخلاقية للكنيسة التى يبدو أنها تتعرض اليوم بصفة خاصة للخطأ والتناقض أو للنسيان». . لذلك يرى البابا أنه «يتعين على الكنيسة أن تقوم بالحفاظ على كلمات الله بقدسية وأن تعرضها بأمانة»، ومن هنا يصبح «من حقها أن تعلن عن عدم صلاحية بعض الاتجاهات فى الفكر اللاهوتى الحالى، أو عدم موافقتها على بعض الاتجاهات الفلسفية لعدم تمشيها مع الحقائق التى تراها».

ومن أهم الأزمات التى تعرض لها البابا فى هذا الفصل أزمة الحرية. ففى «بعض تيارات الفكر المعاصر تم التغنى بالحرية إلى درجة جعلتها قيمة مطلقة تنجم عنها قيم بعينها. وذلك هو اتجاه الفكر الملحد. . . مما أدى إلى ضياع الحقيقة والتوصل إلى مفهوم

ذاتى بحت للحكم الأخلاقى. . . فالثقافة الحديثة تدين مفهوم الحرية وتقلبه رأسا على عقب ـ حتى إن بعض التيارات المعاصرة ترى تناقضا بين القانون الأخلاقى والضمير وبين الطبيعة والحرية».

وينتقد البابا العديد من الاتجاهات الفكرية المعاصرة ومنها: «إن بعض الاتجاهات فى العلوم الإنسانية قد لفتت النظر إلى ظروف سيكولوجية واجتماعية تجعل من الصعوبة ممارسة الحرية الإنسانية، كما أنها قد تعدت مجالها لدرجة إنكار وجود الحرية الإنسانية أو التشكيك فيها»؛ أو تلك الاتجاهات الخاضعة للبحث العلمى ـ فى العلوم الإنسانية ـ وما تؤدى إليه من فهم الأخلاق بصورة نسبية؛ أو تلك الأخلاقيات التى تبيح عمل أى شيء تحت زعم الحرية.

أما فيما يتعلق بمحور الحرية والقانون، فقد تناول فيه العديد من الاتجاهات الحالية، ومنها الميل إلى العقلانية الأخلاقية التى ذهبت إلى إيجاد قانون أخلاقى إنسانى بعيداً عن قانون وأخلاقيات الدين، وذلك مثل المفهوم الخاطئ لذاتية الحقائق الأرضية، وأنها ليست خاضعة لله. . الأمر الذى يؤدى إلى الإلحاد؛ أو مثل علم الأخلاق التحررى: الأمر الذى دفع ببعض العلوم التجريبية وما أحرزه التقدم التقنى إلى التفرقة بين الطبيعة والحرية. كما أدان تلك الاتجاهات السائدة ضد القيم الأخلاقية الجنسية والزواج فى الكنيسة، وتمثل هذه النقطة بالذات واحدة من أهم النقاط التى يتولى البابا محاربتها شخصيا، ومنها إدانة حبوب منع الحمل، والتعقيم المباشر، وتحديد النسل، وعلاقات ما قبل الزواج، والعلاقات المثلية والتلقيح الصناعى. كما قام بانتقاد الذين ينكرون وجود الروح أو أولئك الذين تؤدى الحرية فى نظرهم إلى الفصل بين الروح والقيم الأخلاقية، فى حين أنهما وحدة واحدة فى الإنسان.

وفى محور الضمير والحقيقة يرى البابا «أن طريقة فهم العلاقة بين الحرية والقانون ترتبط بالتفسير الذى يقوم به الإنسان للضمير الأخلاقى، وأن الاتجاهات الثقافية الحالية تعارض، بل وتفصل الحرية عن القانون فى الوقت الذى تتغنى فيه بالحرية بطريقة تبتعد بها عن سلطة الكنيسة ورئيسها»، مؤكدا على ضرورة الاعتماد على الكنيسة ورئيسها لكى يتمكن المسيحى من صياغة ضميره بما لا يتعارض مع الحرية، خاصة وأنها ـ الكنيسة ـ لا تقدم له حقائق غريبة عنه وإنما ترشده إلى الإيمان، أى أن الحرية يجب أن تظل خاضعة لسلطة الكنيسة وتوجيهاتها.

وفى محور الاختيار الأساسى والتصرفات المحددة تحدث عن الفعل الأخلاقى من خلال معنى وهدف الأفعال الإنسانية، وهل الغاية تبرر الوسيلة؟ والدراسات الحقيقية

أو الخاطئة لدراسة الذمم والضمائر، والأفعال السيئة بشكل قاطع، وكان مجمع الفاتيكان المسكونى الثانى قد أدانها من قبل، وهى:

«كل ما يتعرض للحياة نفسها، مثل كافة أنواع القتل البشرى، والقتل العرقى، والإجهاض، والقتل للخلاص من الألم، والانتحار، فكل ذلك يمثل انتهاكا لسلامة كيان الإنسان وهو نوع مثل التشويه، والتعذيب الجسدى أو المعنوى والضغوط النفسية؛ وكل ما يمس بالكرامة الإنسانية مثل: ظروف المعيشة دون المستوى الآدمى، والاعتقالات العشوائية، والترحيل، والدعارة، وتجارة النساء والصغار؛ ومنها أيضا ظروف العمل المهنية التى تجعل العاملين فى مستوى آلات النقل، دون مراعاة لإنسانيتهم الحرة المسؤولة؛ إن كل هذه الممارسات وغيرها مهينة فى الواقع، وبينما هى تدين الحضارة برمتها، فإنها تشين وتفضح من يتاجرون بها أكثر مما تدين من يعانون منها، كما أنها تسب شرف الخالق» (المجمع الفاتيكانى المسكونى الثانى، الدستور الرعوى حول الكنيسة فى عالم اليوم، بند رقم ٢٧).

ولا يمثل هذا النص الاستشهاد الوحيد من قرارات المجمع الفاتيكانى المسكونى الثانى ـ بل إن هذا الخطاب الرسولى برمته، مثله مثل بقية الخطب السابقة للبابا يوحنا بولس الثانى، فهى عبارة عن برامج تنفيذية لقرارات هذه المجمع ومجازفته الكبرى، أو ترجمة لقراره الذى لا توجد سابقة علنية له فى التاريخ، وهو: تنصير العالم!!

ولا يفوت البابا أن يؤكد على ضرورة التمييز بين الخطيئة المميتة والخطيئة غير المميتة، وأن رفض الوصايا العشر ـ من الناحية الحيوية ـ يعنى ويتضمن «رفض الله بشكل سافر أو مستتر»..

* ويدور **الفصل الثالث** حول الصالح الأخلاقى لحياة الكنيسة وحياة العالم، ورغم اختلاف المحاور والمسميات فهو يتناول هنا أيضا نفس مشكلة العلاقة بين الحرية والحقيقة، ونفس المشكلة الأساسية التى تثيرها النظريات الأخلاقية التى تتعرض بصفة خاصة إلى العلاقة بين حرية الإنسان وقانون الله، أى إلى ما يمكن أن يطلق عليه الانقسامات الداخلية، وكيف أن المواجهة بين مكانة الكنيسة مع الموقف الاجتماعى والثقافى الحالى توضح على الفور ما يقع على الكنيسة ـ فى نظر البابا ـ من جهد لتصويب المسار.

ومن هذا المنطلق يتناول البابا فكرة الضياع التى تواجه الإنسان فى المجتمع العصرى وما تؤدى إليه من هدم ذاتى بابتعاده عن الكنيسة؛ وحرية الإنسان على أنها هبة من الله؛ ومأساة الحرية؛ ونموذج يسوع مصلوبا، وكيف أنه يمثل الطريق الوحيد الذى يتعين

على الكنيسة أن تقدمه للناس جميعا إذا ما أرادت أن تفهم معنى الحرية؛ الإيمان والأخلاق، ثم يوجه نداء إلى المسيحيين الذين عليهم أن «يكتشفوا الجانب الجديد فى الإيمان، وفى القوة التى يمنحها فى مواجهة تلك الثقافة المسيطرة والكاسحة لكل القيم»، وكيف «أنه يتعين عليهم جميعا إعادة تقديم الوجه الجديد للمسيحية ومعايشة وصايا المسيح فى الواقع كحقيقة ملزمة لكل الوجود، حتى الاستشهاد».

وفى النظام الأخلاقى السائد يرى نيافته أن الخلط بين الخير والشر يجعل من المحال الحفاظ على النظام الأخلاقى بين الأفراد والجماعات لذلك تطرق إلى ضرورة عدم تهاون الكنيسة، مؤكدا على «أهمية مذهب الكنيسة وخاصة تصميمها على الدفاع عن صلاحتيها العالمية والدائمة».

ثم تعرض للمساواة، والأخلاق الاجتماعية والعالمية، وحركة التجديد أو الصحوة اللازمة للتغلب على عدم العدالة والفساد، ليتطرق منه إلى الأخلاق والسياسة قائلا: «فى المجال السياسى لابد من مراعاة أن الحقيقة بين الحاكم والمحكومين، والشفافية فى الإدارة العامة، وعدم التحيز فى الخدمات العامة، واحترام حقوق الخصوم السياسيين، والحفاظ على حقوق المتهمين فى قضايا أو إدانات إجمالية، والاستخدام العادل الأمين للأموال العامة، ورفض الأساليب غير المشروعة للحصول أو للحفاظ على السلطة الذاتية وتنميتها بأية وسيلة، كلها مبادئ لها جذورها فى القيمة التصاعدية للفرد ،وفى المتطلبات الأخلاقية الموضوعية المطلوبة لسريان الدولة»، ومنها يتطرق إلى ما يخشاه من التحالف بين الديمقراطية والنسبية الأخلاقية خاصة فى الدول الشيوعية، وإلى الإنسان المادى، وكيف أن الإمكانيات العيانية لا توجد إلا فى سر الخلاص على يد المسيح.

وعلى الرغم مما قد يبدو من تفريعات أو تشعبات فى هذه الملامح التى لم نورد إلا بعضا منها، فإن هذا الفصل الأخير يرتكز أساساً إلى محورين إجماليين، حتى وإن تخفتّ ملامحهما أحيانا، من ناحية الأزمة الراهنة خارج وداخل الكنيسة، ومنها فراغ ما بعد الشيوعية وخشية البابا من «ضياع» خرافه فى عقائد أخرى وخاصة فى الإسلام؛ ومن جهة أخرى التأكيد على دور الكنيسة وأهمية التبشير على الصعيد العالمى.

ومن أهم النقاط التى ركز عليها البابا عملية الفصل بين الحرية والحقيقة، نتيجة للفصل بين الإيمان والأخلاق.. و«إن هذا الفصل يمثل واحدة من أكثر الاهتمامات الحيوية الرعوية بالنسبة للكنيسة حيال عملية العلْمَنة السائدة حاليا، والتى تؤدى بالعديد والعديد من الناس إلى أن يعيشوا ويتصرفوا وكأن الله غير موجود»!

وحيال هذا «الواقع الناجم عن ثقافة منزوعة المسيحية، والتى تجعل المسيحيين

يتصرفون وكأنهم غرباء أو متناقضون مع الإنجيل» يرى البابا «ضرورة أن يكتشف المسيحيون ثانية ما تتضمنه عقيدتهم بالنسبة لهذه الثقافة المسيطرة الطاغية».

لذلك بدأ بالقول بأنه «وفقا للعقيدة المسيحية وللمذهب الكنسى فإن الحرية التى تخضع للحقيقة وحدها تؤدى بالإنسان إلى صالحه الحقيقى، وصالح الإنسان هو أن يكون فى الحقيقة وأن يعمل بها»، موضحا كيف أن مواجهة الوضع الحالى للكنيسة مع الموقف الاجتماعى والثقافى يبرز على الفور الواجب الذى يتعين على الكنيسة نفسها أن تقوم به، كما يبرز العمل الرعوى المكثف الذى يقع عليها فى هذه المسألة الحيوية».

وهذا الوضع الذى يدينه البابا هو الذى «يؤدى إلى تلك البلبلة المؤسفة التى تجعل الإنسان يتخبط ولا يعرف من هو ولا من أين أتى أو إلى أين هو ذاهب. . . فالاستماع إلى بعض الأصوات يجعل المرء يتصور أنه لا يجب عليه أن يعترف بالطابع المطلق والذى لا يُهدم لأية قيمة أخلاقية. . . بل إن هذه النسبية فى مجال اللاهوت تتحول إلى نقص فى الثقة فى حكمة الله الذى يقود البشر بالقانون الأخلاقى».

من هنا يوجه البابا حديثه إلى كل الذين يتهمون الكنيسة بقلة الفهم وعدم الرحمة قائلا: «إن صرامة الكنيسة فى الدفاع عن معاييرها الأخلاقية العالمية التى لا تتزحزح لا تمثل أية إهانة، فهى لا تقوم إلا بالدفاع عن حرية الإنسان بما أنه لا توجد حرية خارج الحقيقة ولا ضدها، ولابد من الأخذ فى الاعتبار أن الدفاع الحاسم بلا مواربة وبلا تنازلات لمتطلبات الكرامة الشخصية للإنسان، التى من المحال التنازل عنها، هى الشرط الوحيد والوسيلة التى تسمح بتواجد الحرية».

وبتأكيده مراراً على «أن الصالح الأعلى والصالح الأخلاقى يلتقيان فى حقيقة أن الله هو الخالق والفادى، وحقيقة الإنسان المخلوق الذى فداه الله»، يقطع نيافة البابا بأن «هذه الحقيقة وحدها هى التى تسمح ببناء مجتمع جديد، وبأن تحل كافة المشاكل المعقدة الصعبة التى تهدد أركانه، وأول هذه المشاكل ضرورة تخطى كافة أشكال الشمولية والتغلب عليها لفتح الطريق أمام الحرية الأصيلة للإنسان. . . ذلك لأنه لا توجد أية حقيقة ترشد وتوجه الفعل السياسى، ومن هنا يصبح من السهل استغلال الأفكار والمعتقدات لصالح السلطه الحاكمة، فالديمقراطية بلا قيم سرعان ما تتحول إلى شمولية معلنة أو مستترة، وما أكثر الأمثلة فى التاريخ»!

وينهى البابا هذا الفصل الثالث والأخير من خطابه بالربط بين «الأخلاق وعملية التبشير الجديدة». . . وكيف أن «تبليغ الرسالة يمثل أقوى التحديات وأكثرها إثارة للكنيسة منذ نشأتها حتى اليوم. ففى واقع الأمر هذا التحدى لا يرجع إلى المواقف

الاجتماعية والثقافية التى تصادفها بقدر ما يرجع إلى بعث يسوع المسيح بعد الموت والتى تحدد سبب وجود الكنيسة ذاتها». . ويواصل البابا قائلا: «غير أن المرحلة التى نعيشها ، على الأقل فى العديد من الشعوب، تمثل مرحلة تحد عظمى بالنسبة لعملية التبشير الجديدة، أى لعملية تبليغ الإنجيل الدائم التجديد والحامل دوماً لكل ما هو جديد؛ أى أن عملية التبشير يجب أن تكون جديدة فى حماسها، وفى مناهجها، وفى تعبيرها؛ لأن عملية انحسار المسيحية التى تصيب بعض الأمم وشعوباً بأسرها كانت فيما مضى غنية بالإيمان وبالحياة المسيحية لا تتضمن ضياع الإيمان أو عدم جدواه فى الحياة فحسب، وإنما تؤدى بالضرورة إلى أفول وتعتيم المعنى الأخلاقى، وذلك إما لأنه لم يعد يُنظر إلى أهمية الإنجيل الأخلاقية أو لضياع القيم والمبادئ الأخلاقية الأساسية نفسها. فالتيارات الذاتية، والنفعية، والنسبية الذائعة الانتشار اليوم لا تتمثل كمجرد مواقف براجماتية أو كملامح للتقاليد والعادات، وإنما كمفاهيم صارمة من الناحية النظرية، وتطالب بشرعيتها الثقافية والاجتماعية كاملة».

لذلك يقطع البابا بضرورة «أن يتضمن التبشير الجديد الأسس والمحتوى الأخلاقى المسيحى وأن يظهر أصالته، مستعينا فى نفس الوقت بأقصى طاقاته الإرسالية لا بالكلمة وحدها وإنما من خلال الواقع المعاش». . لذلك «يتعين على كافة الكنائس أن تسهم فى عمليه التبشير وأن تثبت حياة الإيمان. . . ، ابتداء من أكبر الأساقفة إلى آخر الأتباع العلمانيين، عليهم المشاركة فى هذه الحقائق المتعلقة بالإيمان على الصعيد العالمى. . . ولكى تقوم الكنيسة بإتمام رسالتها النبوية عليها بإحياء حياتها فى الإيمان. . . وخاصة رجال اللاهوت الذين يمثلون حلقة الوصل الحميمة الحيوية بين الكنيسة وسرها وحياتها ورسالتها: فعلم اللاهوت علم كنسى نما داخل الكنيسة ويؤثر عليها؛ لذلك فهو فى خدمتها ولابد من أن يتداخل بشكل حميم وفعّال فى رسالتها وخاصة فى رسالتها النبوية. . . وهنا يأتى الدور الخاص والمميز للذين يقومون بتعليم علم اللاهوت الأخلاقى فى حلقات البحث وكليات اللاهوت بموجب تصريح من الدعاة الشرعيين، إذ تقع عليهم المهمة الجسيمة لتعليم الأتباع، وخاصة رجال الدين المقبلين. . . وأن يكونوا شديدى التعاون مع رئيس الكنيسة. . . فالخدمات التى تقع عليهم فى هذا الوقت الحالى أهميتها من الدرجة الأولى، لا بالنسبة لحياة الكنيسة ورسالتها فحسب، وإنما للمجتمع الإنسانى بأسره ولثقافته. . . وعليهم التمييز الدقيق بين الثقافة الحالية، التى هى ثقافة علمية تقنية معرضة لمخاطر النسبية، والبراجماتية والوضعية. . . لأن تأكيد المبادئ الأخلاقية لا يرجع إلى المناهج التجريبية والشكلية. . . إن الإيمان المسيحى وحده هو الذى يوضح للإنسان طريق العودة إلى الأصل، وعادة ما يكون هذا الطريق مخالفا

لطريق المعيارية التجريبية. وبهذا المعنى، فإن العلوم الإنسانية ـ رغم قيمة المعارف التى تأتى بها ـ لا يمكن الاعتداد بها كمؤشرات محددة للمعايير الأخلاقية. . . فالاختلاف فى الرأى القائم على اعتراضات مرتجلة وصراعات يتم التعبير عنها عبر وسائل الإعلام الاجتماعية، مخالف للترابط الإكليروسى وللفهم المباشر للتكوين التدرجى لشعب الله». . وهنا لابد من الإشارة إلى أن تعبير شعب الله هذا يعنى «المسيحيين»؛ وليس اليهود. وهو يمثل أحد القرارات التى اتخذها المجمع الفاتيكانى المسكونى الثانى!

ولا يفوت البابا عند إشارته فى نهاية الخطاب، إلى أنها المرة الأولى فى التاريخ التى يقوم فيها البابا ـ رئيس الكنيسة الأعلى ـ بخطاب بمثل هذا الطول حول العناصر الأساسية للعقيدة، يعرض فيها تقييمه الخاص لبعض الاتجاهات المعاصرة فى علم اللاهوت الأخلاقى، مؤكدا على ذلك الدور الذى يقع على رجال اللاهوت من «ضرورة التمسك بعدم تغيير أى شىء فى عقيدة الإيمان. . وأن تكون مهمة التبشير هى أهم مهامهم الرئيسية. . . وأن يكونوا شديدى الحرص فى استبعاد أية أخطاء أو أى تحريف يتهدد قطيعهم. . . وأن يحرصوا على نقل هذه التعاليم الأخلاقية بأمانة، وأن يتخذوا كافة الاحتياطات اللازمة لحماية الأتباع من أية عقيدة أو أية نظرية مخالفة لذلك. . . وأنه من حقهم أن يسحبوا صفة أو تعبير «كاثوليكى» من المدارس والجامعات والعيادات الطبية أو الخدمات العلاجية الاجتماعية التابعة للكنيسة الكاثوليكية، والتى تخالف هذه التعليمات». أى تلك المؤسسات الكاثوليكية التى تقوم بعمليات الإجهاض أو التلقيح الصناعى وغيرها ـ رغم تحذير البابا ومنعه لها.

* أما **الخاتمة**، وعنوانها: «مريم أم الرحمة»، فهى عبارة عن أنشودة إلى السيدة العذراء، « المثال النموذجى للطاعة للروح القدس والتى تعرف ثمن الخطيئة. . . بل إنها النبل بعينه، فَمَنْ أكثر نبلا من أم الله؟ ومن أكثر روعة من تلك التى قامت الروعة ذاتها باختيارها؟!» إنها أنشودة يطالب البابا من خلالها كل إنسان أن يخضع لقيادة الكنيسة من خلال يسوع المسيح، مثلما خضعت السيدة مريم للروح القدس. . الأمر الذى سيسمح بتنفيذ ملامح الأخلاق المسيحية الحقيقية. فالسيدة «العذراء التى كانت دائما تقبل الأحداث بقلبها وتتأملها حتى وإن لم تفهمها دائما، أصبحت النموذج الذى يحتذى بالنسبة لكل الذين يستمعون إلى كلمة الله ويحافظون عليها. . . لذلك فهى تدعو كل إنسان إلى الأخذ بهذه الحكمة، كما أنها توجه لنا نفس الأمر الذى أعطته للخدم أثناء عشاء العرس فى قانا بالجليل، حين قالت: «افعلوا كل ما يأمركم به»! أى أنه يتعين على الناس طاعة الكنيسة حتى وإن لم يفهموا ما تفرضة عليهم من معتقدات

غير منطقية!

ويختتم البابا خطابه الطويل، الفريد من نوعه، قائلا: «لذلك فهى تقف دائما بجانب الحقيقة وتتقاسم العبء مع الكنيسة، وهى تذكر الجميع بالمتطلبات الأخلاقية فى كل زمان. ولنفس هذا السبب، فهى لا تقبل أن يقوم أى فرد بخديعة أى إنسان بزعم أنه يحبه، ويقدم له مبررات الخطأ الذى يدعو إليه.. إذ أن مثل هذا الموقف يجعلها تدرك أن تضحية ابنها ذهبت هباء.

فلا يوجد أى تبرير، حتى وإن نادت به مذاهب فلسفية أو دينية متساهلة، يمكنه إسعاد الإنسان حقاً إلا الصليب، ومجد المسيح مبعوثا للمصالحة بين ضميره وإنقاذ حياته».

* وقبل الانتقال إلى أهم التعليقات التى صدرت صبيحة الإعلان عن هذا الخطاب الرسولى، قد يكون من المفيد أن نلخص أهم ما ورد به من نقاط، وهى:

١ـ فرض عقيدة الإيمان وفقا للمفهوم الكاثوليكى الفاتيكانى والإصرار عليها، أى التمسك بكل ما أجرى فيها من تحريف وتعديل على مر العصور والمجامع.. فالمسيح وحده «هو الحقيقة وهو الطريق».. أى أن الاختلاف مع العقيدة الرسمية للكنيسة لم يعد مقبولا.

٢ـ الإصرار على أن مذهب الكاثوليكية هو الذى يمثل الخط السليم للعقيدة المسيحية والعمل على توحيد كافة الكنائس تحت لواء كاثوليكية روما.

٣ ـ اعتبار الوصايا العشر حجر الأساس للأخلاق المسيحية، وبخاصة وصية حب القريب، فالحب بعامة، والحب حتى التضحية بالذات من أجل الغير يمثل الجديد الذى أتى به يسوع المسيح ـ وإن كانت النصوص الإنجيلية تقول بعكس ذلك كما سنرى فيما بعد.

٤ـ التركيز على وحدة الكنيسة ككيان واحد، والتصدى لعلماء اللاهوت المنشقين منهم أو الذين يثيرون الشغب، أى «الذين أدخلوا تمييزا واضحا ومخالفا للعقيدة الكاثوليكية، ونظاما أخلاقيا ليس له سوى أصل إنسانى وقيمة أرضية دنيوية فحسب، ونمطا للخلاص لا يرى أية أهمية فى أن تكون بعض الأغراض وبعض المواقف الداخلية متجهة لله وللقريب».. أى أنه أيا كانت المدرسة الأخلاقية المعنية أو المقترحة فلم يعد من الممكن مخالفة العقيدة الكاثوليكية الفاتيكانية.

٥ ـ منح مزيد من السلطات القمعية لرجال الإكليروس أيا كانت درجاتهم للحد

من أية بادرة انشقاق، وينص البابا على أنه يتعين «على كافة الأتباع الاعتراف والالتزام بالمبادئ الأخلاقية المعينة التى أعلنتها الكنيسة وعلمتها باسم الله السيد الخالق». وينجم عن هذا الموقف الواضح الصرامة أنه لم يعد من الممكن لمؤمن أن يفصل بين الإيمان والأخلاق، فالمسيحى لا يمكنه أن يكون مؤمنا حقاً إذا لم يلتزم بتطبيق تعاليم الكنيسة بطاعة عمياء. والإيمان المسيحى فى نظر البابا ليس بفلسفة قابلة للنقاش وإنما هو الحق بعينه ويتعين تقبله بلا مناقشة.

٦ ـ فرض عملية التبشير على كافة المسيحيين بموجب حصولهم على التعميد، وبالتالى أصبح يحق عليهم لا الدفاع عن المسيحية فحسب، وإنما العمل على فرضها بشتى الوسائل.. الأمر الذى كان البابا قد أفرد له خطابا رسولياً بأكمله تحت عنوان: «رسالة الفادى.. القيمة الثابتة لوصية الرسالة» وذلك فى السابع من شهر ديسمبر عام ١٩٩٠م.

٧ ـ التأكيد على أهمية وضرورة تنصير العالم، وخاصة فى بلدان ما بعد الشيوعية خشية من استمرارها فى الإلحاد أو من تحولها إلى الإسلام.. ومن هنا باتت ضرورة ضرب الإسلام على أنه يمثل الملجأ الوحيد أمام الذين يكفرون بمسيحيتهم عند اكتشافهم كل ما أجرى فى عقيدتهم من تحريف ولا يمكنهم العيش فى الإلحاد...

٨ ـ التصدى لرجال الحكم المسؤولين عن مصائر الشعوب.. وقد أشار البابا إلى تدنى الوضع الراهن من «سرقات، وحجوزات عشوائية، واختلاسات تجارية، وارتفاع فى الأسعار اعتمادا على الجهل والفاقة، والغش التجارى، والاستيلاء على الأموال العامة واستخدامها، والأعمال الإنشائية السيئة التنفيذ، والاختلاسات المالية، وتزوير الشيكات والفواتير، والمصاريف المبالغ فيها والتبذير.. إلخ»، مؤكدا على ضرورة مراعاة الحق وفقا للعقيدة المسيحية وأخلاقياتها فى كافة المعاملات.. ومن الجدير بالذكر أن الآيه الوحيدة التى استشهد بها البابا من الإنجيل مرتين فى الفقرة ٤٩ والفقرة ٨١ من خطابه تقول: «أم لستم تعلمون أن الظالمين لا يرثون ملكوت الله. لا تضلوا. لا زناة ولا عبدة أوثان ولا فاسقون ولا مأبونون ولا مضاجعو ذكور ولا سارقون ولا طماعون ولا سكيرون ولا شتامون ولا خاطفون يرثون ملكوت الله» (رسالة بولس الأولى إلى أهل كورنثوس، الإصحاح السادس: ٩ـ١٠).



الباب الثانى

تعليقات فرنسية على الخطاب الرسولى

تعليقات فرنسية على الخطاب الرسولى

تنوعت التعليقات الصادرة فور الإعلان عن هذا الخطاب الرسولى، المكمل لكتاب التعليم الدينى الجديد الصادر فى نوفمبر ١٩٩٢م، وإن كانت تتفق جميعها على ما سوف يحدثه من ردود فعل ومن تصدعات جاهد البابا فى درء معالمها.

* فقد كتب «**بول فالاديبه**» قائلا: «ما من إنسان يجهل إلى أى مدى أثارت السلطة الكاثوليكية العديد من التحفظات، بل والمعارضات الصريحة من جانب مختلف الأتباع فيما يتعلق بمجال الأخلاق الجنسية... إلا أن خطاب «روعة الحقيقة» لا يثير أزمة صريحة حول عدة نقاط أساسية للتعليم الأخلاقى فحسب، وإنما يهز أرجاء السلطة نفسها... أما فيما يتعلق بالموقف النزاعى - فإن هذه الوثيقة تتبع أكثر من استراتيجية، ذلك لأن الاعتراضات الواردة بها تهدف أكثر من نقطة فى التعليم الأخلاقى وإن لم تتعرض بوضوح إلى النقطة الجنسية بالتحديد، فالخطاب ينقل الانتقادات إلى مشاكل الأخلاق الأساسية مع مراعاة تثبيت سيادة المذهب الكاثوليكى.

وهى أول مرة فى تاريخ التراث الأخلاقى، الكاثوليكى تتعرض فيه وثيقة بمثل هذا الحجم، وبمثل هذه السلطة للمجال الأخلاقى. ومن اللافت للنظر أن الخطاب موجه أساساً إلى الأساقفة، وليس إلى عامة الأتباع كما يبدو للوهلة الأولى، فالفصل الثانى يتعرض صراحة لكل المشاكل المثار حولها الجدل بين رجال اللاهوت ودارسيه، تلك المشاكل التى ينتقدها البابا بشدة، ومن الواضح أنه لا يتوجه بخطابه هذا إلى معارضيه، وإنما إلى الأساقفة التابعين له ليطلب منهم صراحة التدخل فيما يدور لإعادة النظام، أى أنه يجعل منهم أدوات قمع رسمية لاستبعاد من يثيرون الشغب بتعاليمهم المخالفة» (جريدة ليموند الصادرة فى ٦/ ١٠/ ١٩٩٣م).

ثم يعلق «فالاديبه» على هذا الدور الجديد الذى فرضه البابا على الأساقفة قائلا: «وبذلك وجد الأساقفة أنفسهم فى الصف الأول فى الجبهة، ومدفوعون إلى تدخلات حساسة. إذ سيتعين عليهم أن يتخذوا المواقف اللازمة فى موضوعات شديدة التخصص فلسفيا ولاهوتيا، بغية استبعاد من يقلقون راحة بال الأتباع بتعاليم مخالفة، كما أن عبارة البابا لهم والقائلة: «بأن يتخذوا الإجراءات اللازمة» تدفع بإمكانية الحوار مع خصومه إلى الصف الثانى، وهذا الموقف من أوضح سمات الخطاب الرسولى الجديد».

ويؤكد الكاتب على أنه باقتراح البابا أن تكون الكاثوليكية بأخلاقياتها هى الركيزة

الأساسية التى يقود من خلالها التوجيه العام لسياسته، فإن ذلك يعنى «فرض سيطرة جديدة قد تغيب عن ذهن القارئ العادى»؛ ذلك لأن القضايا المطروحة كالخير والشر والواجب ـ على سبيل المثال ـ لا تتعلق باللاهوت الدينى مباشرة، وإنما هى ناجمة عن تحليل فلسفى بحت، تختلف اتجاهاته وفقا للمذاهب. الأمر الذى جعل هذا الخطاب يبدو وكأنه يهمّش الخلافات المذهبية الداخلية لفرض آرائه بصورة نهائية.

وينهى «فالادييه» تعليقه قائلا: «إن البابا يقدم وجهة نظره ضد القضايا التى يعترض عليها، ويناقش مواقف خصومه ويتدخل فى الصراعات بصورة تجعله يضع نفسه فى مستواها: «إذ أنه يتخذ جانب إحدى المدارس اللاهوتية صراحة ضد المدارس الأخرى بإصرار واضح... وبإدانته لبعض رجال اللاهوت بلا مواربة حتى دون أن يذكر أسماءهم، بل دون أن يتوجه إليهم بخطابه، فذلك سيؤدى إلى أن يجعل من خصومه اللاهوتيين الضحية أو السبب الرئيسى لأزمة الخلافات الكنسية، وخاصة أزمة السلطة داخل الكنيسة».

* أما «**هنرى تانك**» فيقول فى تعليقه: «إن إدانة العقلانية والوضعية والاشتراكية والليبرالية ليست بجديدة، فقد سبق للبابا بيوس العاشر أن أدانها عام ١٨٦٤م، مبشرا بنصر الكاثوليك وهزيمة الليبراليين، وقد اتخذ البابا يوحنا بولس الثانى نفس الأسلوب ونفس الخطوط العريضة فى رسالته إلا أن مسميات أعداء اليوم قد تغيّرت لتصبح: الارتيابية، النزعة الفردية، النسبية الأخلاقية، الذاتية، واستبدادية حرة غير قادرة على آن تضع حدوداً لنفسها، ولا أن تحترم معاييرها الذاتية!» (جريدة ليموند ٦/ ١٠/ ١٩٩٢م).

وإذا ما كانت معظم الخطب الرسولية الحديثة تتناول موضوعات مذهبية، فلسفية أو اجتماعية، فيرى «هنرى تانك» «أن نص الفلسفة الأخلاقية الذى أعلنه البابا، فى الخامس من أكتوبر ١٩٩٣م، لا سابقة له وإن كان لا يتضمن شيئا جديدا حول آرائه الأخلاقية المعروفة فى قضايا من قبيل الإجهاض، وتحديد النسل، ووسائل منع الحمل، والتلقيح الصناعى، والتلاعب بالجينات، والعلاقات الزوجية غير المشروعة، وكلها قضايا كثر الحديث عنها فى كتابه الأخير حول التفسير الدينى الجديد للديانة الكاثوليكية العالمية الذى أصدره فى نوفمبر ١٩٩٢م».

ثم يوضح الكاتب كيف أن أهمية الرسالة الجديدة تكمن فى صلتها المباشرة بالأحداث الجارية إذ أنها اشتملت على «مساومات طويلة، وتوترات، ومدة صياغة غير طبيعية ـ ست سنوات ـ وصدورها فى مناخ شديد الخلافات الدينية ـ خاصة فى

الولايات المتحدة وألمانيا وفرنسا ـ وفى جو من الانفصال المتزايد بين الكنيسة والرأى العام، بما فى ذلك الرأى العام الكاثوليكى. بينما يكمن الملمح الجديد لهذه الرسالة فى الطموحات المعلنة: التوصل إلى أعماق الأشياء، تفسير الجذور الفلسفية والأنثروبولوجية والمواقف الأخلاقية التى يساء فهمها بصورة غريبة. فإن كانت هناك سلبية ما، فلا شك فى أنها تكمن بين المجتمع والكنيسة».

ثم يشير «هنرى تانك» إلى أن هذه الرسالة الغامضة أحيانا، والتى يشوبها الخلط أحيانا أخرى، عبارة عن توجيهات محددة لمزيد من السلطات الممنوحة للأساقفة بغية تشديد الرقابة المفروضة على رجال اللاهوت، وعلى حلقات البحث والجامعات والمستشفيات الكاثوليكية ـ التى يقوم بعضها بعمليات التلقيح الصناعى أو الإجهاض ـ وذلك بغية إقناع الأتباع بالتخلى عن الاختيار والتمييز بين الحقائق التى تطرح عليهم، أى أن المطلوب هى عملية طاعة بلا مناقشة، ومن هنا يمكن القول بأنها رسالة تحدد نهاية العهد المسمى: «الحق فى الاختلاف الدينى» بل ونهاية المناقشة والتجريب. فالمطلوب من الأسافقة هو عدم التهاون مع المعترضين على الحقائق الكنسية أو حتى على جزء منها».

الأمر الذى جعل الكاتب يتساءل قائلا: «كيف يمكن للبابا أن يتحدث طويلا وبمثل هذا الشكل عن حقوق الإنسان، وأن يتجاهل أو ينكر إلى مثل هذا الحد حرية البحث وحرية التعبير، بل ويحرمها حتى على رجال الكهنوت»؟

ثم ينهى «هنرى تانك» تعليقه قائلا: «من الواضح أن الاضطراب والبلبلة السائدة فى مجال التعليم الأخلاقى، ورفض توجيهات الكنيسة قد أصبح جماعياً حتى باتت هناك ضرورة لإعادة تأكيد المبادئ بصورة حادّة بمثل هذا الشكل... إلا أن الغاية لا تبرر الوسيلة!! فمهما بلغ قلق البابا من العصر الحديث، حيال هاوية القيم السائدة، وحيال ضياع الشباب، والأزواج، والعلماء، بل وحتى الأطباء، فإن ذلك كله لا يبرر له إدانة رجل لاهوت واحد يخالفه فى الرأى! وما أكثر الذين أدانهم نيافة البابا من رجال اللاهوت، أو من العلماء لمجرد خروجهم عن سلطانه وتعاليمه!».

* أما «**جان لوك پوتييه**»، فيرى أيضا أن الخطاب موجه إلى الأساقفة ومن خلفهم رجال اللاهوت الذين يصيدون فى المياة العكرة. فالرسالة ذات فحوى مزدوج، خارجيا وداخليا. فى المجال الخارجى يؤكد على أن الفاتيكان ذا المكانة العالمية من حقه وضع الخط الفاصل بين الخير والشر، بين الله والشيطان. وفى المجال الداخلى فإن هذا الخطاب بمثابة أداة حرب عقائدية، إذ يأتى هذا النص مكملا لكتاب التفسير الدينى

العالمى الجديد، الصادر فى أواخر العام الماضى، وهو بمثابة الأبجدية المعيارية للمذهب الكاثوليكى» (جريدة ليبراسيون ٦/ ١٠/ ١٩٩٣م).

ويرى الكاتب أن عبارة «روعة الحقيقة» تشير إلى السلطة المطلقة لحقيقة بعينها يقوم الكرس الرسولى بفرضها، وأن هذا الخطاب يأتى فى الوقت الذى تفقد فيه الأحزاب السياسية الكاثوليكية آو الدينية مركزها أو أهميتها خاصة فى بولندا وفى إيطاليا، وأنه فى الوقت الذى حدد فيه البابا لنفسه هدف استعادة بولندا وأوروبا الشرقية من الإلحاد، حدد لنفسه هدفاً بعيد المدى، يمكن تلخيصه على النحو التالى: التقارب مع الكنائس الأخرى؛ تعميق الحوار مع العقيدة اليهودية؛ حقوق الإنسان والديمقراطية.

ويلخص «جان لوك پوتييه» رأية فيما يتعلق ببولندا بناءً على ما حدث فى الانتخابات التشريعية الماضية، فى ١٩/ ٩/ ١٩٩٣م؛ إذ قام البولنديون بالابتعاد عن القوى السياسية المحافظة المساندة للكنيسة، وذلك «لكثرة ما عانوه من ضغوط بتحويلهم إلى اقتصاد السوق، ووقاحة بعض رجال اللاهوت فى إصرارهم على فرض المسيحية قهراً فى كافة المجالات من جديد، وجعل الدروس الدينية إجبارية فى المدارس، وتحريم الإجهاض!

وإن قام الكاتب بتوجيه اللوم للبابا لتأخره فى الاعتراف بإسرائيل «حتى يتمكن من حماية حقوق الكاثوليك فى الشرق وفرض حمايته على الأماكن المقدسة»، فذلك لأن سياسة الفاتيكان «قد أفسدت إلى حد ما الفرص المتاحة أمامه ليكون طرفا مباشراً فى الصراع الإسرائيلى العربى».

أما فيما يتعلق بالمفهوم الكاثوليكى لحقوق الإنسان فيرى الكاتب أنه ما زال مصدر تضارب لم يحسم بعد، الأمر الذى سيبدأ ـ فى نظره ـ عندما تنساب التعليقات على رسالة «روعة الحقيقة» . . فالانهيار الانتخابى للديمقراطية المسيحية يعيد من جديد تلك المشكله القديمة، الخاصة بالوحدة السياسية للكاثوليك. إذ يبدو أن اتحادهم فى الدين، وهم منقسمون سياسيا، أمر يمس بفكرة عالمية الدين؛ لذلك قام البابا بتوجيه خطاب فى ٢٨/ ٩/ ١٩٩٣م إلى الأحزاب السياسية الدينية فى مدينة تورينو بإيطاليا مطالبا بضرورة العمل على دَرْء الخلافات بينها.

وهنا يتساءل «جان لوك پوتييه»: «ما جدوى تصلب البابا فى رأيه ومحاولة السيطرة على سلطاته إذا كانت القواعد الشعبية لمشروعه الخاص بتنصير العالم تفلت من يديه»؟

* أما «**إميل پولا**» ـ أستاذ علم الاجتماع ومدير الدراسات بكلية الدراسات العليا للعلوم الاجتماعية ـ فيقوم بتحليل هذا الخطاب قائلا: «لا شك فى أن هذه الرسالة

الأخيرة كانت من أصعب النصوص فى صياغتها، على الأقل من حيث إنها أول رسالة بابوية تتناول الأخلاق فى حد ذاتها، فلقد تمت استشارة علماء لاهوت بولنديين وبلجيك وألمان وفرنسيين، ورغم ذلك فالنص النهائى يحمل بكل تأكيد البصمة النهائية للبابا يوحنا بولس الثانى. فهو أول بابا يستخدم فى رسائله صيغة المتكلم «أنا» ! وهى صيغة سلطوية بكل تأكيد وإن كان من الممكن أن تفهم أيضا على أنها لمسة بساطة».

ويعيب «إميل پولا» على النص ـ رغم دقته وشدة اهتمامه بفحص الأناجيل والاستشهاد بها ـ أنه «يبدو شديد الكاثوليكية.. وأنه بعيد عن المفهوم البروتستنتى.. كما أنه كثيرا ما يستند إلى الفلسفة التومية» ـ نسبة إلى القديس توما الأكوينى، فى القرن الثالث عشر ـ فالوقت الذى كانت فيه أوروبا الوسطى المسيحية تتثقف بالفلسفة اليونانية لأرسطو، وهى مرحلة انتقال الفكر الرمزى إلى فكر منهجى قائم على المنطق، كان قانون الطبيعة يمثل كل ماهو نظام للأرض والعالم. فهو زمن أعد فيه توما الأكوينى لمجىء ديكارت، مثلما قام ديكارت بإعداد مجىء عصر التنوير.. إلا أن الصراع هو الذى دار بين توما الأكوينى وعصر التنوير. ومن هنا نشأ الصراع الكبير بين التراث الكاثوليكى ـ الذى يرى أن الطبيعة لاتنفصل عن الله ـ وبين الفلسفة التحررية، واستمر الصراع مع المنطق العلمانى فى القرن التاسع عشر، ثم فى القرن العشرين، مع قفزة الفلسفة وانتقالها إلى مجال حرية الإنسان وسيادة الضمير.

ويتمثل هذا الصراع بين الكنيسة والفلسفة فى تلك الرسالة البابوية التى صاغها بيوس التاسع، وأدان فيها ثمانين مجالا من المجالات العصرية، ومن بعده قام بيوس الثانى عشر بتكرار الهجوم عام ١٩٥٠م برسالته المعنونة «الجنس البشرى»، وتبعه البابا بولس السادس الذى أدان تحديد النسل فى رسالته عن «الحياة البشرية». ويواصل البابا يوحنا بولس الثانى نفس الخط، فما زال الخلاف قائما بما أنه يدور حول مفهوم الضمير وحرية الإنسان.

وهنا لابد من وقفة قصيرة نوضح فيها أهمية توما الأكوينى (١٢٢٥ ـ ١٢٧٤) بالنسبة للكنيسة بعامة وبالنسبة للبابا يوحنا بولس الثانى بصفة خاصة، فقد اهتم الأب توما بدراسة موقف غير المسيحيين وكيفية تنصيرهم، وقد دمج فى هذا الجمع كلا من اليهود والمسلمين والوثنيين والهراطقة ـ أى المنشقين عن الكنيسة لاختلافات عقائدية. ومن أهم مؤلفاته كتابه المعنون: «إخطار إلى الوثنيين». ويستند المؤلف فى الفصول الثلاثة الأولى إلى حقائق واردة عند أرسطو خاصة بوجود الله وكمال الخليقة وقيادته للعالم، وفى الفصل الرابع يتناول فكرة الثالوث والتجسد والخلاص اعتمادا على تجارب

المبشرين السابقين فى الشرق الأوسط والأدنى، وهذا الفصل بمثابة تلخيص مكثف للعقيدة المسيحية بالصورة التى تعاون المبشرين فى حملاتهم. . الأمر الذى يفسر اهتمام البابا بهذا الكتاب والاستعانة به لتنصير العالم. . .

والقديس توما هذا كان يلعب دورا سياسيا ذا شقين فى التبادلات الدبلوماسية بين الامبراطور ميشيل پاليولوج والبابا أوربان الرابع من ناحية، وفى إطار الإرساليات الموفدة إلى الشرق الأوسط والأدنى (Ries, J.: les chretiens parmi les religions)).

وقد تم ترسيمه قديسا عام ١٣٢٣م تم فرض مبادئه مذهبا رسميا للكنيسة!

* أما «**فيرونيك سوليه**» فقد ركزت تعليقها حول بداية تباعد بولندا عن الكنيسة. . فلقد تزايد تدخل الكنيسة فى بولندا من خلال حليفها الشديد حزب «تضامن» إلى درجة بدأت تصيب البولنديين أنفسهم بالضجر: « إن البابا يوحنا بولس الثانى يحلم بأن يجعل من بولندا الفنار الجديد للمسيحية فى أوروبا. إلا أن نيافته لا يجوز له أن يتجاهل الوضع الحرج الذى تمر به الكنيسة حاليا فى وطنه. . فبعد أربع سنوات من سقوط النظام الشيوعى. بدأت الكنيسة تواجه الاعتراضات المتزايدة من أبنائها حتى راحت تنكمش» (جريدة ليبراسيون ٦/ ١٠/ ١٩٩٣م).

وترى الباحثة سهولة إمكانية قياس انكماش تأثير الكنيسة من عدة نقاط تذكر منها: الانتخابات التشريعية الأخيرة التى دارت فى ١٩/ ٩/ ١٩٩٣م، والتى ابتعد فيها الناخبون عن الأحزاب والتحالفات الدينية، بل الملفت فى نظرها أنه فى بلد يعد ٩٠٪ من تعداده كاثوليك، لم يدخل أى تكوين ديمقراطى - مسيحى البرلمان، وهناك مثال آخر تورده الكاتبة هو: « محاولة الكنيسة عبثا أن يكون لها صحيفتها اليومية لكنها تواجه حاليا بمناخ معادٍ لرجالها كما كشفت الاستطلاعات الأخيرة عن آراء البولنديين فى رجال إكليروسهم، إذ يتهمونهم بالجهل والوقاحة، والثراء الفاحش، وتبلد الحس الاجتماعى.

وعلى الرغم من ذلك، ترى الكاتبة أن المكاسب التى حققتها الكنيسة خلال هذه السنوات الأربع ليست بقليلة: فلقد نجحت فى تحريم الإجهاض - إلا إذا كان الحمل خطرا على حياة الأم، أو كان ناجما عن علاقة بالأب أو بالأخ!! وكانت بولندا تتمتع بواحد من أكثر القوانين التحررية بالنسبة لأوروبا منذ عام ١٩٥٦م. كما نجحت الكنيسة خلال هذه السنوات الأربع فى إعادة فرض تعليم الدين فى المدارس، والتصويت على قانون بنص على أن الإذاعة والتليفزيون يجب أن « تحترم القيم المسيحية» كما تمسكت بموقفها المتشدد من الطلاق، وقامت بتوقيع وثيقة مع الفاتيكان لجعل الزواج الدينى بنفس أهمية وقيمة الزواج المدنى .

ومن ناحية أخرى ترى الكاتبة أن الكنيسة البولندية ـ بالمقارنة ببقية الكنائس الغربـية ـ تعد من أقوى البنيات وأثراها، بفضل دور النشر التى تمتلكها إلى جانب جامعتها اللاهوتية الشهيرة، ولقد استطاعت بفضل قانون الاسترداد أن تستعيد آلاف الهكتارات من الأراضى التى كانت تمتلكها قبل التأميم الشيوعى، كما استعادت عشرات المبانى والمدارس والمستشفيات. . « إلا أن كل هذه الانتصارات قد تمت انتزاعاً ضد الرأى العام، الذى بدأ يرى بوضوح أن هذه الكنيسة التى عاونتهم على التخلص من الشيوعيين تحاول هى الآن السيطرة عليهم والتحكم فى حياتهم».

وإذا ماكان الدور السياسى الذى تلعبه الكنيسة فى بولندا ليس بجديد، فالكاتبة تشير إلى: « أن الكنيسة البولندية كانت على مر التاريخ تلعب دوراً سياسيا فوق العادة، خاصة أيام التقسيم عندما تلاشت بولندا لفترة ما من على الخريطة الجغرافية، بأنها كانت بمثابة السند الوطنى وآخر رمز للهوية الوطنية. . وبعد الخمسينات، بدأت تستعيد سيطرتها من جديد، إذ تمثل الثمانينات تتويجا لجهودها السياسية وتحالفها مع حزب تضامن لسان حال السلطة!! إلا أنه منذ التسعينات قد بدأ الجو يتغير، فعلى الرغم من استمرار تردد البولنديين على الكنيسة إلا أنها لم تعد تمثل فى نظرهم ذلك الكيان الذى لا يمكن المساس به ليزداد التصدع بين الأحرار والمحافظين».

* أما التحليل الذى قدمه «ميشيل لجرى»، فيرى أن هذا الخطاب سيثير الكثير من الجدل سواء فى المجال العام أم فى المجال الدينى، بل إنه يورد أن سكرتارية الفاتيكان نفسه قد تساءلت حول جدوى إذاعة مثل هذا الخطاب فى هذا التوقيت بالذات، وأن الأب جان ـ لوى بروجيس ـ ويعمل أستاذا للاهوت الفرنسى بالمعهد الكاثوليكى بمدينة تولوز قد قال للبابا، مشيرا إلى رسالته هذه: إنك تتلاعب هنا بالديناميت (مجلة إكسبريس ١٤/ ١٠/ ١٩٩٣م).

ثم يوضح الكاتب أهمية أنها « أول مرة تتدخل فيها الكنيسة بهذا الوضوح فى علم الأخلاق الأساسى، فالمقصود هنا ليس تعريف الأخلاق بعبارات معيارية ضابطة، وإنما تعريف الأسس التى تقوم عليها». . ثم يحدد الفرق بين الخطاب الرسولى وكتاب التفسير الدينى الجديد، والذى يأتى هذا الخطاب مكملاً له: إن الكتاب الدينى الجديد يرمى إلى المدى البعيد ولا يمكنه تناول مشاكل الساعة، وإلا عفى عليه الزمن سريعاً؛ أما الخطاب الرسولى فهو يتناول مهمة الإجابة على مشاكل الساعة الملحة التى يمكن تلخيصها بالمشاكل التى تمثل أزمة جوهرية.

والأزمة التى يراها الكاتب هنا لا تتمثل فى العصر الحديث وبحثه عن قيم قد

تعطى معنى للحياة، وتحد من شعوره بالضياع فحسب، لكنه يشير إلى أزمة الثقافة التى تواكبها أزمة فى قلب الكنيسة ذاتها. . ويحدد معالم أزمة الكنيسة فى خطين: من ناحية« محاولة بعض رجال الدين فى القيام بنوع من المصالحة، أو الحلول الوسط بين العقيدة والواقع المُعاش»، ومن ناحية أخرى« تباعد أتباع المسيحية سواء بوعى أو بدون وعى منهم ـ فكثيرا ماتكون معايير أحكامهم بعيدة أو متناقضة مع معايير الكتاب المقدس». وهنا يسارع المؤلف قائلا: «ومع ذلك فعلى الأصوليين، والمحافظين، والمدافعين عن القيم التقليدية « الحقيقية» فى نظرهم ألا يتعجلوا بالانشراح ويروا فى «روعة الحقيقة» تأكيدا لمعتقداتهم لأن التوبيخ موجه للكافة»!!

ثم يوضح الكاتب كيف أن هذا الخطاب يناقض الكثير من القيم والأفكار السائدة فى الحياة العامة فى العصر الحديث، وخاصة فيما يتعلق بمجالى الحقيقة والحرية. فالحقيقة وفقاً لهذا الخطاب لا تخضع لذاتية كل فرد. إنها موضوعية وقائمة بذاتها،والحقيقة التى يعنيها البابا هنا هى « الله مصدر الخليقة والحياة والخير. إنها عالمية وتوجد فى قلب كل إنسان من خلال الأخلاق الطبيعية التى تظهر أيضا فى الديانات الكبرى الأخرى فى الغرب أو فى الشرق. وأولا وبخاصة فى اليهودية، فى إله الوصايا العشر والإنجيل، وقد أكثر البابا من الاستشهاد بهما ليوضح أن هذه الرسالة الإلهية تنتهى بالمسيح الذى يعد تجسيدها الكامل».

وهنا لابد من أن نشير أولا إلى اختلاف مفهوم الله فى المسيحية والإسلام، أى اختلاف المفهوم بين التثليث الذى مازال مثار خلاف فى الكنائس والتوحيد الحقيقى، كما هو ممثل فى الإسلام.

أما إصرار البابا والمؤسسة الكنسية برمتها على إنكار الإسلام، واعتبار السيد المسيح هو آخر المرسلين، وأنه التجسيد الكامل لرسالة التوحيد ـ الأمر الذى يمثل جوهر عملية التبشير بعامة وعملية التبشير الحديث من خلال تحديث الكنيسة والحوار، هذا الإصرار بحاجة إلى توضيح خاطف يتعين على المختصين الإسلاميين أن يضعوه فى الاعتبار.

فتحديث الكنيسة هو العبارة المقابلة لكلمة aggiornamento التى أقرها المجمع الفاتيكانى المسكونى الثانى، وتعنى: إجراء التعديلات اللازمة حتى تظل النصوص الإنجيلية ـ بكل ما أجرى بها من تحريف ـ متمشية مع العصر الحديث، وقد أدت كل التغييرات الناجمة عن هذا التحديث إلى تغيرات عقائدية ومذهبية أدت بالمعترضين عليها ـ وما أكثرهم ـ إلى إطلاق عبارة « الكنيسة المجمعية» أى كنيسة مابعد المجمع المسكونى الفاتيكانى الثانى. وقد تم هذا التحديث أو التغيير لتسهيل عملية توحيد

الكنائس واقتلاع الإسلام.

أما الحرية، فيقول الكاتب« **ميشيل لجرى**»: إن البابا يتناولها بمعايير أكثر بعدا وتبايناً عما يدور فى الواقع، لأن الحرية لا يمكنها أن توجد فى ذاتها، وبذاتها، ولذاتها. وأن الخطاب الرسولى يؤكد على تبعية الحرية للحقيقة، وهو يقلل من معايير الصدق والإخلاص، والأصالة، والاتفاق مع الذات فى نطاق استقرارها على حساب المطالب الضرورية للحقيقة، وهنا يدين الكاتب انتقاد البابا للعلوم الحديثة التى تمخضت عنها الحقائق الأنثروبولوجية، وانتقاده للعلوم الإنسانية، ومطالبته بتجديد جذرى فى الحياة الاجتماعية والسياسية.

فهو من ناحية يخشى على الحرية من انطلاقها بلا ضوابط أن تؤدى إلى نوع جديد من الشموليات، كما يخشى مخاطر التحالف بين الديمقراطية والنسبية الأخلاقية خاصة بعد انهيار الشيوعية.

* أما«**كرستيان مكاريان**» فيقول (مجلة لوبوان ٩/ ١٠/ ١٩٩٣): بعد خمسة عشر عاما من توليه منصبه يجازف البابا يوحنا بولس الثانى بتقديم حقيقة ستؤدى روعتها إلى إبهار وصدم أكثر من كاثوليكى بالضربة القاضية. . وإذا ماتتبعنا عبارات البابا حرفيا سنجد أننا فى قلب النبوءة الكوارثية التى قالها بولس لتيموثاوس فى رسالته الثانية ـ التى نوردها فى نهاية الكتاب ـ وأنه من الضرورى التذكير بحقيقة الكتاب المقدس قبل أن يفلح كل قادة العصر الحديث من علماء النفس، وأنصار الأيديولوجيات التحررية، والمخالفين بأنواعها، والنسبيين، والعلماء، وأصحاب نظريات الجينات، وناشرى فكرة الصواب السياسى، أى قبل أن يفلح كل الذين علمونا أن ننسى مبادئ الأخلاق الكاثوليكية فى استكمال أعمالهم الهدامة. . فوفقا لقداسة البابا، لقد حان الوقت لإيقاظ الضمائر الغافلة وتذكيرها بأن الكتاب المقدس هو الذى سيحررهم من كافة المتاهات العصرية أو مابعد العصرية التى لم تتمكن من تحسين حالة الإنسان».

ثم يوضح الكاتب قائلا: « كيف أن حرية الكتاب المقدس تمر أولاً عبر حقيقة الكنيسة أى بتقبل فكرة أن سلطة الفصل بين الخير والشر ليست ملكا للإنسان، وإنما الله وحده وبقول آخر: إن الفرق بين الخير والشر قد أملاه الله، وتطبيق الأخلاق المسيحية تعنى الاحترام الصارم لوصايا الله، وليس القيام باختلاق آراء ذاتية وفقا للمناسبات والنظريات أو العلوم النفسية .. فهو يطالب بتطبيق قانون الكنيسة ولاشىء سوى قانونها». .

ويختتم الكاتب تحليله بعبارة الأب فيليب لجرى، راعى كنيسة سان نيكولا دى

شاردونيه، الذى علق على الخطاب قائلا: «إنه مجرد بحث في الأخلاق ودليل على ضعف شديد.. إن الأزمة التى تهز أرجاء الكنيسة بأسرها لا تتعلق بالأخلاق وإنما تتعلق بالعقيدة نفسها»!!

* أما «**فيليب ليفيان**» أستاذ التاريخ المعاصر فى جامعة باريس ـ نانتير والمتخصص فى شؤون الكرسى الرسولى ـ فقد قال فى الحوار الذى أجراه معه « إيف كورنو» مجلة لوپوان ١٦/ ١٠/ ١٩٩٣م:

« إن البابا يوحنا بولس الثانى قد تمّ انتخابه فى أكتوبر ١٩٧٨م، فى جو الأزمة الناجمة عن محاولة تطبيق قرارات المجمع المسكونى الفاتيكانى الثانى ـ الذى سنتناوله فيما بعد ـ وعن فراغ السلطة الذى ساد فى أواخر عهد البابا بولس السادس... لقد فرض نفسه منذ البداية كبابا معيارى، فعلى عكس التردد الذى اتسم به بولس السادس، قام يوحنا بولس الثانى بفرض الممارسة الكاملة لسلطاته البابوية.. ومنذ عام ١٩٨٤م قام بفرض القانون الداخلى للكنيسة مقيما بذلك ماعرف باسم« أسقفية وفقا لنمط يوحنا بولس الثانى»، وهى من النمط العقائدى وخطابه الأخير، المعنون:« روعة الحقيقة»، الذى تم إعلانه فى الأسبوع الماضى يمثل أوضح دليل على ذلك. كما كان البابا قد انطلق قبل ذلك، وبمناسبة انعقاد سنودس ١٩٨٥م، لإحياء الكنيسة فى كافة الاتجاهات، معتمدا على الحماية التى تخولها له وظيفته، ليضع كل ثقله على كنائس أوروبا الشرقية وليس على كنيسة بولندا وحدها، متبعا نظام الصدمات أو الضربات العنيفة ... ونفس هذا التسلّط نراه فى صياغة خطابه الأخير واستخدامه غير التقليدى وغير المتّبع لصيغة المتكلم المفرد «أنا».. الأمر الذى يؤكد السيادة المعيارية لهذا الخطاب. إنه نص متعلق بالضمير ولكنه يعد أيضا بمثابة كتاب دينى سياسى، بما أنه يدين التعسف فى استخدام الحريات فى النظم الديمقراطية والخلط بين الدفاع عن الذات باسم الحريات وباسم الحق. إنه نص لشخص لاينوى التساهل فى أداء وظيفته كخليفة لبولس الرسول، ومن هنا فهو شديد الاستفزار فى عالم نزعت عنه مسيحيته »..

وحول سؤال عما إذا كان هذا الخطاب سيسد الفجوة القائمة بين الكنيسة والمجتمع، أجاب أستاذ التاريخ المتخصص فى شؤون الكرسى الرسولى قائلا:« إن كل مشكلة يوحنا بولس الثانى هى أنه شديد الشعبية ولا ينصت إليه أحد ـ على الأقل ـ ممن هم من جيلنا لذلك يتوجه إلى الذين يمثلون المستقبل، والدليل على ذلك: الخطاب الرسولى الذى وجهه للشباب عن التربية المسيحية... فمن مميزات يوحنا بولس الثانى أنه لا يخشى مواجهة الرأى العام. وهذا الخطاب الأخير يأتى مطابقا لشخصيته!

إنه يرفض التساهل أو المساومة.. إن مشكلته تتلخص فى محاولته إقامة قانون كنسى وهيمنة روحية على العادات، فهى أول مرة يدين فيها خطاب رسولى الوثنية أو التدله، والارتداد، والإلحاد على أنها خطايا .. إنه يرفض فكرة أن ينتهى الأمر إلى اعتبار المسيحية كثقافة خشية عليها من الابتذال والعلمنة... فمنذ سقوط حائط برلين وهو يشعر بضرورة إعادة تأكيد مواقعه، والدليل على ذلك صراعه مع الكنيسة الأرثوذكسية فى روسيا واعترافه باستقلال كرواتيا. إن كافة نصوص يوحنا بولس الثانى تعطى الإيحاء بأن العالم الغربى فى انحلال متواصل وأنه بمثابة الرئة المصابة بالغرغرينا أما الرئة الثانية، التى تمثل كنائس الكتلة الشرقية فهى مصابة حاليا بالربو».

* أما « **اوجين مانّونى**» فهو ثانى كاتب يتناول الموضوع من زاوية بولندا .. فقد كتب فى مجلة لوپوان (١٦/ ١٠/ ١٩٩٣م) تحت عنوان: « يوحنا بولس الثانى، نبى فى وطنه»، قائلا: « إن الكنيسة فى بولندا كانت من القوة حتى أطلق عليها: قوة ضد السلطة، وهى حالة فريدة من نوعها بالنسبة للديمقراطيات الشعبية ... وقد كان من الملاحظ أن أعداد الذاهبين إلى القداس يتزايد بشدة عن المناضلين الذين يحضرون الاجتماعات السياسية ... وقد كان انتخاب أحد البابوات من الكنيسة البولندية بالذات إيذانا بتغيير أوروبا الشرقية الأمر الذى طمأن البولنديين أن يكون واحد منهم على رأس السلطة الكنسية فى روما ... أما «معجزات» يوحنا بولس الثانى، فلم يكن بوسعه تحقيقها بمفرده حتى فى بولندا. وكذلك فى الاتحاد السوفيتى، فقد كان عليه أن ينتظر من هو شبيه بالامبراطور كوستانتين، الذى سرعان ما بدأ يظهر فعلا بملامح جديدة لأحد رجال السوفييت من نمط جديد هو: ميخائيل جورباتشوف، الذى وافق على تقديم «المساعدات اللازمة» للتعجيل بنهاية العالم الشمولى» !أى ذلك النمط من القادة الذين يقبلون خيانة بلدهم بالتواطؤ مع الغرب وتنفيذ مخططاته.

ويجيب الكاتب، ردا على التساؤلات الدائرة فى مدينة وارسو، عما هو الشىء الأسوأ من الشيوعية؟ فيقول: « مابعد الشيوعية. فالحروب الضارية تجهز على استكمال تمزيق الاتحاد السوفيتى وعلى يوغسلافيا السابقة ـ وكلها حروب لها خلفية دينية. إننا نعيش فى زمن تصورنا أنه انقرض. أيام كانت روما وبيزنطة تتصارعان ميراث القياصرة ورداء المسيح.. أو أيام حروب المسيحية ضد الإسلام».

وهنا لابد من الإشارة إلى أن الكاتب« فيليب مانّونى» هو الوحيد الذى أشار صراحة إلى تلك الحرب التى يخوضها التعصب الكنسى ضد الإسلام، سواء فى جمهوريات الاتحاد السوفيتى السابق، أم إلى تلك الإبادة الجماعية لشعب البوسنة

والهرسك، وإغراقها فى بحر الصمت عبر مسرحية مخزية تجمع كل المشتركين فيها بالفعل أو بالتواطؤ . .

ولم يشر الكاتب إلى هذه الحقيقة من فراغ، وإنما استقاها من خطاب البابا، رغم كل ماتضمنه من تعتيم ومواربة فى عبارات العديد من الفقرات الكاشفة لتعصب أكمه وموقف غير أمين . . وذلك من قبيل تلك العبارة التى يقولها نيافته: « إن الالتقاء برجال من عصرنا يتضمن إيجاد البراهين والأدلة العقلانية المتزايدة التماسك باستمرار لتبرير المتطلبات وتأسيس معايير الحياة الأخلاقية . . . إنه بحث يوازى متطلبات الحوار والتعاون مع غير المسيحيين وغير المؤمنين، خاصة في المجتمعات التعددية».

* ويعلق الأب «**جاك جوليان**» ـ فى مقدمته لطبعة هذا الخطاب الرسولى فى دار نشر سنتوريون ـ على مثل هذه الفقرات قائلا: « إن البابا يؤكد على أهمية الدعامة الدينية فى الأخلاق، ولا يجب أن ندهش لرؤيته وهو يحاول تنفيذ التحقق الحقيقى للإنسان من خلال المسيح الذى هو إله حقيقى وإنسان حقيقى ! وهذا الإعلان ليس بتهديد لغير المسيحيين»!! أى أنه لا يجوز أن ندهش لرؤية البابا وهو يحاول تنفيذ مخططه لتنصير العالم، وأن ذلك لايعد تهديدا لغير المسيحيين . . وإنما علينا أن نتقبله عن طيب خاطر!!

وقبل أن ننتقل إلى تعليقنا على هذه الرسالة بكل ماتضمنته من فريات ومغالطات أبعد ماتكون عن « الحقيقة» أو عن« روعتها»، لانملك إلا أن نتساءل: إذا ما كان القيام بعملية الاقتلاع والإبادة التى تتم حاليا ـ كما يقول البابا ـ لا يمثل تهديدا لغير المسيحيين، فماذا تسمىّ الإبادة الدائرة حاليا على الصعيد العالمى التى لا تمس سوى المسلمين، ترى ماعساها تكون، أوما الذى يمكن أن تمثله؟!





الباب الثالث

تعليق على الخطاب من خلال خمسة محاور أساسية

١ـ العقيدة.

٢ـ الكنيسة والأزمة.

٣ـ البابا يوحنا بولس الثانى (دوره السياسى وموقفه المزدوج).

٤ـ تنصير العالم.

٥ـ الحوار.

تعليق على « روعة الحقيقة»

يتضح مما تقدم أن الخطاب يزخر بالموضوعات والنقاط التى تستوجب الرد والتفنيد، إلا أن تناولها على حدة قد يطمس معالم الحقائق، ويجعلها أكثر ثقلا وإغراقا فى التفاصيل والمتاهات من النص الأصلى؛ لذلك آثرنا دمجها فى محاور إجمالية حتى لاتفلت الخيوط الأساسية أو تتوه فى تشعبات لاحصر لها..

وقد قمنا باستخلاص خمسة محاور رئيسية سنتعرض لها على التوالى، وهى:

- الخطاب نفسه.
- العقيدة.
- الكنيسة والأزمة.
- البابا يوحنا بولس الثانى.
- تنصير العالم.
- والحوار مع غير المسيحيين.

لقد أجمع كل الذين علقوا على الخطاب بأنها رسالة غامضة يشوبها الخلط والتكرار، وأن الأسلوب يتسم بالحرص والمواربة.. ولا أدل على ذلك من طول الوقت الذى استغرقته صياغتها ـ التى امتدت ست سنوات.. بل إنه خطاب يحاول إقامة قانون كنسى وهيمنة روحية على العادات وعلى الحياة اليومية للأتباع، وفقا لمفهوم ونمط يوحنا بولس الثانى، كما يحاول إقناع الأتباع بالتخلى عن حرية الاختيار وقبول ماتطرحه الكنيسة بطاعة مطلقة لتعاليمها وبلا أية مناقشة، « فقد أغلق باب الحوار إلى غير رجعة»! كما أنه خطاب قد تناول الحرية بمعايير بعيدة عن الواقع إذ يؤكد على« تبعية الحرية للحقيقة».. وعلى الرغم مما قد يبدو منطقيا فى مثل هذه المقولة،إلا أنه لابد من التساؤل: أيه حرية، وأية حقيقة؟! وتتزايد علامات الاستفهام،« فالحقيقة» الدينية قد تم تحريفها منذ وفاة السيد المسيح و « الحرية» هى ألا تختار سواها !!

ولعل ذلك هو ماأدى إلى أن تتساءل سكرتارية الفاتيكان نفسه عن جدوى نشر مثل هذا الخطاب، وفى مثل هذا التوقيت بالذات.

وأيا كانت التعليقات التى تفجرت فور إعلان هذا الخطاب،فجميعها يلتقى فى ساحة الاستياء ـ وإن كان بدرجات متفاوتة الحدة أو الصراحة. فقد قال «ميشيل لجرى»:

إن « التوبيخ موجه للكافة»؛ بينما قال كرستيان مكاريان: «إنها حقيقة ستؤدى «روعتها» إلى صدم أكثر من كاثوليكى بالضربة القاضية» ـ إلا أن هذه الضربة القاضية قد تعدت بالفعل نطاق الكاثوليك لتصيب الكافة بصفعتها. وقد قام الأب« جان ـ لوى بروجيس» بتلخيص هذه الحقيقة بصراحة قائلا: « إن الخطاب عبارة عن تلاعب بالديناميت»؛ بينما راح الأب فيليب شاردونيه يفجر ذلك الدنياميت بوضع يده على جوهر الموضوع قائلا: «إنه بحث فى الأخلاق ودليل على ضعف شديد . . فالأزمة التى تهز أرجاء الكنيسة بأسرها لا تتعلق بالأخلاق وإنما تتعلق بالعقيدة».

ولا شك فى أن الأزمة الحقيقية ـ بكل مافجرته من تمزقات ـ تكمن فى أعمق أعماق الكنيسة وفى غياهب أسرارها، أى أنها تكمن بالفعل فى العقيدة نفسها، وإلا لما تصدى البابا لتأثير تلك« التيارات التى تنبذ العقيدة التقليدية والشرع الطبيعى وعالميته والصلاحية الدائمة لمفاهيمه» ولما تصدى «لعدم قبول أصحابها لبعض التعاليم الكنسية»، وخاصة لذلك « الاختلاف الواضح بين الإجابات التقليدية للكنيسة، ومواقف بعض رجال اللاهوت ـ المنتشرة حتى فى حلقات البحث وكليات اللاهوت ـ حول مسائل حيوية ومن الدرجة الأولى بالنسبة للكنيسة وحياة الإيمان للمسيحيين والإنسانية بعامة».

ولا تقتصر الخلافات الحيوية على الكنائس المغايرة وإنما ـ وفى واقع الأمر ـ أن البابا يواجه خلافات حادة حتى مع بعض الأجهزة والمؤسسات الكاثوليكية التابعة له، بدليل مطالبته للأساقفة « باتخاذ التدابير اللازمة» وتخويلهم السلطات الضرورية « لسحب صفة الكاثوليكية عنها»!

أى أن هناك تمزقا ما أو تمزقات ـ إن صحت العبارة ـ وهناك أزمة حقيقية تواجه نيافته بينما يحاول هو احتوائها ، وإلا لما لجأ إلى ذلك الإيقاع المحموم لدرئها، وتهميش الخلافات الداخلية «بغية تحديد بعض الملامح العقائدية التى تبدو حاسمة لمواجهة مايسمى ـ بلا شك ـ بأزمة حقيقية»لذلك نراه يحاول جاهدا التوصل لغرضه قبل أن تنجح محاولات من أطلق عليهم تعبير « خصومه» فى التوصل إلى استكمال تحقيق أعمالهم التى وصفها بأنها « هدامة لكيان الكنيسة»!

وتمتد جذور الأزمة على عمق ألفى عام من التاريخ المنسوج، ولا تتعلق بمجرد عدة نقاط خلاف بين أفراد وجماعات، وإنما تتعلق بالعقيدة أساساً . . أو أنها تتعلق بالفعل بالعقيدة أولا وأخيرا على حد قول الأب فيليب شاردونيه .

وهو الأمر الذى سنبدأ بتناوله.

١ ـ العقيدة

إذا ماقمنا بتلخيص النقاط المتعلقة بالعقيدة، الواردة بهذا الخطاب الرسولى، لوجدنا أنها تتركز إجمالا فى:

ـ الإصرار على عقيدة الإيمان وفرضها « فالمسيح هو الحقيقة وهو الطريق».

ـ الإصرار على أن المذهب الكاثوليكى هو الخط الوحيد السليم للعقيدة.

ـ المطالبة بضرورة التمسك بعدم تغيير أى شىء فى عقيدة الإيمان.

ـ اعتبار الوصايا العشر حجر الأساس للأخلاق المسيحية وخاصة وصية الحب والتأكيد على حب الآخرين لدرجة التضحية بالذات.

ـ اعتبار الوصايا ملزمة لكل الوجود؛ وأنها الطريق والشرط للخلاص، وهى الشرط الأساسى والخطوة الأولى اللازمة للطريق نحو الحرية، وأن تصرف يسوع وأعماله ومبادئه تمثل القاعدة الأخلاقية للحياة المسيحية .

لذلك رأينا أن نتناول أهم العناصر المكونة للعقيدة، وهى: التثليث، يسوع، الأسرار، الأناجيل، والوصايا؛ وأن نوضح باختصار شديد ماتتضمنه من متناقضات لم تعد مقبولة، أو لم تعد تتمشى مع المنطق بسبب كل ماتم اكتشافه فيها من تجاوزات مثبوتة علميا ووثائقيا، كما لم يعد عقل الأتباع يتقبلها فى عصرنا هذا . . .

التثليث:

عقيدة التثليث من الركائز الأساسية التى تقوم عليها المسيحية. وهى تنص على أن«الأب هو الله، والابن هو الله، والروح القدس هو الله؛ لكنه لايوجد سوى إله واحد، إله فى ثلاثة أشخاص»(Enc. Bordas, 231 ` 1)

ويقول الباحث « ب. أوبان» حول هذه العقيدة: « ومما يلفت الانتباه بصفه خاصة أن المسيحيين لم يعرفوا عبارة الثالوت قبل نهاية القرن الثانى. فأقدم استعمال لها وصلنا إنما كان عند ثيوفيلس الأنطاكى فى كتابه إلى أوتوليكوس (A Autolycos. **Dieu :** **pere, Fils, Esprit**) مما يؤكد أن الثالوت الذى لم يرد إطلاقا فى الكتاب المقدس، عبارة عن رمز لعقيدة تم تركيبها على مر الأيام، وقد أدى هذا التعريف الذى تكون فى القرون الأولى للمسيحية، إلى العديد من الانقسامات كانت أهمها تلك الحركة التى قام بها أريوس (٢٥٦ ـ ٣٣٦م)، أسقف الأسكندرية، إذ أن موقفه هو الذى أدى إلى انعقاد

مجمع نيقيا الأول عام ٣٢٥م،وكان أريوس يرى أن الابن، يسوع، ليس من طبيعة الأب الإلهية، فالأب أزلى لابداية ولانهاية له، بينما الابن مولود، أى له بداية ونهاية مادية جسدية أى أنه مخلوق وليس بإله. فقام الأسكندر، مطران الأسكندرية بحرمانه كما أدانه مجمع نيقيا.

ومجمع نيقيا هذا هو أول مجمع مسكونى جمعته الكنيسة، وقام بصياغة عقيدة الإيمان فى شكلها النهائى والمعروفة بعقيدة التثليث، وهنا يقول عبد المجيد الشرفى: « إن الأمر الذى غيرّ وجه الكنيسة منذ القرن الرابع هو استعانة الكنيسة بالسلطة الحاكمة لفرض« الإيمان القويم» على من تعتبرهم هراطقة، والتجاؤها إلى قتلهم عند الاقتضاء»! (الفكر الإسلامى للرد على النصارى).

وما أكثر الذين تم قتلهم منذ بداية فرض« العقيدة» المسيحية المحرّفة، بل وما أكثر الذين يتم قتلهم حاليا كالمنشقين على الكنيسة من رجال الكهنوت فى أمريكا اللاتينية.. إلا أن الانقسامات آنذاك قد تزايدت داخل الكنيسة وتفرعاتها بحيث قام مجمع القسطنطينية المسكونى الثانى، المنعقد من مايو إلى يوليو عام ٣٨١م، بفرضها بالصورة التى صاغها مجمع نيقيا الأول فرضا نهائيا على الكافة، مع التأكيد على أن الروح القدس مساويا لله وليسوع!

لكن ذلك لايعنى أن الأمر قد استقر بهذه الصياغة.. ففى شهر سبتمبر من نفس عام ٣٨١م - أى بعد شهرين من انعقاد المجمع الأخير - انعقد مجمع أكويلا بإيطاليا ليرفض قرارات مجمع القسطنطينية. ومن متابعة الثبت التاريخى لأهم الأحداث المسيحية فى كتاب Grandes dates du christianisme نرى أن مجمع فريول بشمال شرق إيطاليا، المنعقد عام ٧٩٦م، يوجه اللوم إلى الكنيسة اليونانية لعدم اعترافها بأن الروح القدس منبثق عن الأب والابن ومساويا لهما، وفي عام ٨٠٧م تم فرض مبدأ مساواة الروح القدس بالأب والابن على كنيسة القدس. الأمر الذى أدى إلى مزيد من الخلافات والصراعات - وإن ظلت كنيسة الشرق ترى أنه ينبثق من الأب« عن طريق الابن» أى ليس مساويا له، وفى عام ٨٠٩م أقر مجمع اكس لا شاپيل بجنوب فرنسا مبدأ التثليث، بينما رفض كبير الأساقفة الفرنسيين إدخاله رسميا فى العقيدة، وفى شهر أكتوبر عام ١٠٩٩م أقرت الكنيسة اليونانية فى مجمع بارى بجنوب إيطاليا مبدأ مساواة الأقانيم الثلاثة.

ومن هذا العرض الشديد الإيجاز نرى أن عقيدة التثليث غير منزّلة، وأنه قد تم نسجها وفرضها من خلال المجامع على مر العصور، وهو الأمر الثابت فى الوثائق

التاريخية والكنسية رغم محاولات التحريف والتبديل ومن هنا نخرج أيضا بدليل آخر على أن أيادى العابثين قد لعبت فعلا بالأناجيل. فوجود الآية التالية: « فاذهبوا وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الأب والابن والروح القدس» فى إنجيل متى (٢٨:١٩)، والمعروف أنه كتب بعد سنة ٧٠ أو ٨٠ ـ أى بعد المجمع الأول المنعقد فى القدس عام ٥١، وإقحام هذه العبارة فى نص الإنجيل لا يكسبها أية شرعية، وإنما يثبت عملية التحريف، وأنها قد أضيفت فيما بعد؛ لأن السيد المسيح منذ بداية رسالته حتى لحظة وفاته ـ أى طوال فترة نبوته ـ لم يكف عن ترديد وتأكيد الفارق الذى بينه وبين الله، بدليل الآيات التالية:

* « فأجابه يسوع: إن أول كل الوصايا هى اسمع يا إسرائيل الرب إلهنا رب واحد» (مرقس ١٢ : ٢٩).

* « وتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك» (مرقس ١٢ : ٣٠).

* « وأما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعلم بهما أحد ولا الملائكة الذين فى السماء ولا الابن إلا الآب» (مرقس١٣ : ٣٢).

* « لماذا تدعونى صالحا ليس أحد صالحا إلا واحد وهو الله» (متى ١٩ : ١٦).

* « قال لها يسوع: لا تلمسينى لأنى لم أصعد بعد إلى أبى ولكن اذهبى إلى إخوتى وقولى لهم إنى أصعد إلى أبى وأبيكم وإلهى وإلهكم» (يوحنا ٢٠ : ١٧).

* « . . . لو كنتم تحبوننى لكنتم تفرحون لأنى قلت أمضى إلى الآب. لأن أبى أعظم منى » (يوحنا ١٤ :٢٨).

* « . . لأنه مكتوب للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد» (متى ٤ : ١٠).

* « . . هذا يسوع النبى الذى من ناصرة الجليل» (متى ٢١ : ١١).

* « . . ولا تدعوا لكم أباً على الأرض لأن أباكم واحد الذى فى السموات» (متى٢٣ : ٩).

* « . . قد قام فينا نبى عظيم» (لوقا ٧ : ١٦).

* « . .فقال لهم عيسى لا يمكن أن يهلك نبى خارجا عن أورشليم»(لوقا ١٣ :٣٣).

* « . . . إن هذا هو بالحقيقة النبى الآتى إلى العالم»(يوحنا ٦ :١٤).

* « . . . أنا إنسان قد كلمكم بالحق الذى سمعه من الله» (يوحنا ٨ : ٤٠).

* « يسوع الناصرى الذى كان إنساناً نبياً مقتدراً فى الفعل والقول أمام الله وجميع الشعب» (لوقا ٢٤ : ١٩).

* « . . والكلام الذى تسمعونه ليس لى بل للأب الذى أرسلنى»(يوحنا ١٤ : ٢٤).

أى أن ماتقدم يعنى: أن « الرب إلهنا رب واحد» (مرقس ١٢ : ٢٩) والتأكيد على حب الله وحده (مرقس١٢ : ٣٠) وأن «علم الساعة لايعرفها إلا الله(مرقس١٣ : ٣٢)، وأن الله وحده هو الصالح (متى ١٩ : ١٦) وأن الله وحده هو الذى يسجد له ويعبد (متى ٤ : ١٠)ـ أى أن الصلاة فى المسيحية أيام يسوع كانت بالسجود وليست وقوفا أوجلوسا كما هى الآن بعد التغيير. . ومن هنا نخرج بأن « يسوع الناصرى، الإنسان النبى المقتدر فى الفعل وفى القول أمام الله وجميع الشعب» (لوقا ٢٤ : ٩) لم يكن نبيا فحسب، وإنما كان نبيا مؤمنا موحدا بالله سبحانه وتعالى، الأمر الذى يؤكد رسالة التوحيد التى أتى بها وتم تحريفها من بعده . وهو مايتفق وتأكيده على أن« الكلام الذى تسمعونه ليس لى بل للآب الذى أرسلنى »(يوحنا ١٤: ٢٤).

« . . .اجلسوا ههنا حتى أمضى وأصلى هناك. ثم أخذ معه بطرس وابنى زبدى وابتدأ يحزن ويكتئب. فقال لهم نفسى حزينة جدا حتى الموت. . . ثم تقدم قليلا وخر على وجهه وكان يصلى قائلا: ياأبتاه إن أمكن فلتعبر عنى هذه الكأس. ولكن ليس كما أريد أنا بل كما تريد أنت فمضى ثانية وصلى قائلا: يا أبتاه إن لم يمكن أن تعبر عنى هذه الكأس إلا أن أشربها فلتكن مشيئتك. . فتركهم ومضى أيضا وصلى ثالثة قائلا ذلك الكلام بعينه» (متى ٢٦: ٣٦ ـ ٤٤).

* « ونحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلا: إيلى إيلى لما شبقتنى أى إلهى إلهى لماذا تركتنى (متى ٢٧: ٤٦).

* « ونادى يسوع بصوت عظيم وقال: ياأبتاه فى يديك أستودع روحى» (لوقا ٢٣ : ٤٦).

ولن نبدأ بالإشارة إلى الاختلاف الواضح بين نص ومضمون الآيتين الأخيرتين، ولا كيف أنه من المفترض ألا تتغير عبارات السيد المسيح ومعانيها من كاتب إلى آخر، لكننا نقول فقط: إننا نخرج من الآيات السابقة بأن السيد المسيح قد فرق بينه وبين الله عز وجل من حيث التوحيد، وعلم الغيب، والقدرة؛ كما أقر بأنه مجرد رسول مرسل برسالة بعينها، ونستشف من نفس هذه الآيات بأنه مجرد إنسان يحزن ويتألم ويصلى تضرعا لله . . ولا نقول شيئا عما يمكن أن يخرج به القارئ من تناقض عبارته عند لفظ أنفاسه الأخيرة، فإحداهما تكشف عن اليأس من رحمة الله وأنه سبحانه وتعالى قد

تخلى عنه، بينما تعبرّ الثانية عن سكينة واطمتنان بوجوده.. وأيا كان المعنيان فهما يؤكدان إيمان السيد المسيح بالله عز وجل وأن الله ـ سبحانه وتعالى ـ شيء، وهو ـ كإنسان ـ شيء آخر.

وهنا لابد من وقفة نتابع فيها فى الأناجيل الأربعة الآية التى تصف صيحة يسوع قبل وفاته كما يقولون.

ففى إنجيل متى (الإصحاح ٢٧) نقرأ:« ونحو الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلا: إيلى إيلى لم شبقتنى. أى إلهى إلهى لماذا تركتنى فقوم من الواقفين هناك سمعوا قالوا إنه ينادى إيلبا»(٤٦ ـ ٤٧).

ويقول الهامش الوارد فى الطبعة الفرنسية (المليئة بالهوامش) والصادرة عام ١٩٨٦م، تفسيرا لكلمة «إيلبا» إنه:« تلاعب قبيح بالألفاظ قائم على انتظار إيلى السابق للمسيح (راجع الفقرة ١٧، ١٠ ـ١٣)،أووفقا للعقيدة اليهودية أنه كان يأتى لإنقاذ الأخيار عند الحاجة» (صفحة ١٤٥٥)، وأقل مانخرج به من هذا التفسير هو أن « إيلى» الذى ناداه يسوع ليس « إيليا» الذى تحدث عنه الواقفون، وأن هناك اختلافا جذريا بين العبارتين، ومع ذلك يترك الخطأ أو الاختلاف بل ويتم تبريره فى أناجيل أخرى..

وفى إنجيل مرقس (الإصحاح ١٥) نقرأ:« وفى الساعة التاسعة صرخ يسوع بصوت عظيم قائلا: إيلوى إيلوى لم سبقتنى. الذى تفسيره إلهى إلهى لماذا تركتنى فقال فوم من الحاضرين لما سمعوا هو ذا بنادى إيليا» (٣٤ ـ ٣٥).

ويقول الهامش الوارد فى الطبعة الفرنسية، تعليقا على كلمة« إيلوى» هذه: «إن الصيغة الآرامية هى Elahi (إلهى) وتمت كتابتها Eloi (إيلوى) ربما تحت تأثير الكلمة العبرية Elohim (إيلوحيم). أما العبارة التى ساقها متّى Eli (إيلى) فهى عبرية، وهى الصياغة الخاصة بالنص الأصلى للمزمور وهى تفسر بشكل أوضح تلاعب العبارات الواردة على لسان الجند» (صفحة ١٤٧٨). أى أن يسوع صاح مناديا إلهى إلهى باللغة الآرامية التى هى لغته، وليس « إيلى»؛ وأن هناك اختلافا معروفا بين العبارتين الواردتين على لسان كل من بسوع والجند الواقفين من حوله، ورغم تأكدهم هذا يتركون الخطأ...

وفى إنجيل لوقا (الإصحاح ٢٣) نقرأ تحت عنوان « صلب يسوع» (فى الطبعة الفرنسبة) وهو عنوان غير وارد فى الطبعة العربية لكنا سنورد التعليق بعد الآية التى تقول:« ولما مضوا به إلى الموضع الذى يدعى جمجمة صلبوه هناك مع المذنبين واحدا

عن يمينه والآخر عن يساره. فقال يسوع: أبتاه اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون» (٣٣ _ ٣٤).

وبدلا من أن نقرأ تفسيرا منطقيا لهذا الاختلاف الشاسع للعبارة التى قالها يسوع، نطالع فى الهامش الفرنسى الخاص بالعنوان المكتوب لهذه الآية، وهو « صلب يسوع» الفقرة التالية: «إن المقارنة بما هو وارد بإنجيلى مرقس ومتّى يوضح كيف استطاع لوقا أن يضفى على محنة الصلب نسمة هادئة: فالجمهور (الآيات ٢٧، ٣٥ _ ٤٨) يبدو فضوليا أكثر منه عدائيا، كما أنه يبدو نادما (الآية ٤٨)؛ إن يسوع لا ينطق تلك الكلمات التى تكشف عن يأس ظاهرى: « إلهى إلهى لم تركتنى»؛ إنه يواصل ممارسة رسالته التسامحية حتى النهاية(الآيات ٣٤، ٣٩ _٤٣)؛ ولفظ أنفاسه وهو « يستودع روحه بين يدى» «الأب» (صفحة ١٥١٧).

وياله من تلاعب معسول بعبارات رومانسية من نسمة هادئة وندم..

الهامش ليس بحاجة إلى تعليق، فالمفترض وحدة الرواية للحدث الواحد خاصة لمثل هذه اللحظة الحاسمة، إلا أنه يكشف بوضوح عن عمليات التحريف التى تمت لإقحام فكرة الفداء وفكرة الخلاص بكل مايواكبها من تبرير، خاصة إذا ما قرآنا الهامش التالى له والمتعلق بعبارة يسوع القائلة: « فقال يسوع: يا أبتاه، اغفر لهم لأنهم لا يعلمون ماذا يفعلون »(٣٤) إذ يقول الهامش التفسيرى: « لابد من الاحتفاظ بهذه الآية رغم أن عددا كبيرا من الشهود يلغونها»!!

وكأن ذلك يكفى كتبرير لعدم ورودها فى الأناجيل الأخرى. ثم يواصل الهامش الثانى لنفس هذه الآية شارحا عملية التبرير المزعومة الدقة والأمانة بدلا من تناول الأسباب الحقيقية قائلا: « عبارات يسوع هذه تذكرنا بسفر هوشع (ls.53,12) ونفس تقييم أسباب وفاته سيأتى فى أعمال الرسل(Ac.3,17;13, 27; lco 2,8) أن الشماس إيتيين سيصلى بنفس المفهوم فى أعمال الرسل(Ac.7,60) وفقا للمثال الذى خلفّه المعلم لكافة تلاميذه(1p.2,23) راجع متى (+22-18,21)..

ويتوه القارئ فى البحث واستخراج الهوامش، والمراجع تزخر بالهوامش الأخرى، وينسى التناقض الأصلى الذى دفعه إلى البحث.. ولنواصل متابعة الآية الخاصة بصيحة يسوع:

ففى إنجيل يوحنا، الرابع والأخير، نقرأ فى (الإصحاح ١٩): « فملؤوا **إسفنجة** من الخل ووضعوها على زوفا وقدموها إلى فمه. فلما أخذ يسوع الخل قال قد أُكمل

ونكس رأسه وأسلم الروح». .

ولن نتوقف هنا لشرح هذا النص منطقيا أو لغويا، خاصة عبارتا « الإسفنجة» و«أخذ»: فكيف يمكن لشخص مصلوب موثوق بالمسامير على الصليب، وفى النزع الأخير، كيف يمكنه أن« يأخذ»من «الإسفنجة»؟ كيف يأخذ ويداه مسمرتان أو كيف يمكنه الشفط واعتصار الإسفنجة بشفتيه ـ الأمر الذى يتطلب مجهودا من الإنسان العادى، فما بالنا بإنسان يحتضر ولفظ أنفاسه بعدها بثوان معدودة ؟! اللهم لا تعليق. . ونواصل تتبع مايكتبون:

وعند مراجعة الهامش الوارد بالطبعة الفرنسية والخاص بكلمة « رأسه» أى «ونكس رأسه» نطالع: أى قضى عمل الأب مثلما هو متنبأ به بالكتاب: **خلاص العالم** عن طريق **تضحية المسيح**. إن يوحنا لا يورد صرخة النزع الأخير التى أوردها متى (٢٧ :٤٧) ومرقس(١٥ :٣٤) فلقد آثر ألا يحتفظ سوى بالجلال الهادئ لهذه الوفاة. راجع لوقا (٢٣ :٤٦)؛ ويوحنا (١٢ :٢٧) ومابعدها».

وقد رأينا ماورد بالأناجيل الثلاثة السابقة؛ وبالرجوع إلى يوحنا (١٢: ٢٧) نطالع: « الآن نفسى اضطربت. أيها الآب نجنى من هذه الساعة. ولكن لأجل هذا أتيت إلى هذه الساعة. أيها الآب مجدّ اسمك!».

ويوضح الهامش الخاص بعبارة الاضطراب، فى (صفحة ١٥٥٠) من الطبعة الفرنسية: « إن هذا المنظر يذكر بجتسمانى [أى بالمنطقة التى تم فيها القبض على يسوع القلق أمام الساعة التى تقترب ، استجداء عطف الآب، قبول التضحية والطمأنينة القادمة من السماء (راجع لوقا). ومع ذلك لاحظ الفوارق التالية: إن المسيح يظل واقفا واستجداؤه للعطف يبقى فى حالة صراع داخلى (يوحنا)؛ « وانثنت ركبتاه» (لوقا)؛ و«خر ساجدا على الأرض» (متى ومرقس) راجع يوحنا (١٨: ٤ ـ ٦، ١٠: ١٨ ومابعدها) . . ويبادر المفسرون بالتبرير:

وكأن كل هذه الاختلافات فى وصف اللحظة الواحدة، والتى لاتبرير لها سوى التحوير لإثبات أشياء أخرى، تؤخذ على أنها مجرد اختلافات تعبيرية لغوية تختلف من كاتب لكاتب وفقا لاختياره!!

أما الهامش الخاص بكلمة « اسمك» (أى مجد اسمك) فيقول: « اسمك» صيغة أخرى «لابنك» وتعنى نفس شخص الآب. إن يسوع يقدم نفسه للموت ليتم العمل الذى سيمجد الآب بالتعبير عن حبه للعالم أجمع (١٧: ٦وما بعدها)!

ولاندرى بأى عقل أو منطق - ولا نقول بأى حق - يمكن اعتبار اسمك= ابنك= نفس شخص الآب، خاصة وأن يسوع ظل حتى آخر لحظة - كما يقول إنجيلان - يفرق بينه وبين الله عز وجل؟!

ولقد أسهبنا فى تناول هذه الآية، الخاصة بصرخة يسوع، لنوضح كيف يتم التحايل لتخطى التناقضات التى تثبت عبث الأيادى بنصوص الأناجيل، وكيف استخدم إنجيل يوحنا بالذات - المكتوب بعد المجامع الأولى التى تم فيها التحريف الأساسى أيام بولس «الرسول»، وذلك لتأكيد العقيدة الجديدة وإضفاء « شرعية » لها!

إن مانود التأكيد عليه هو أن يسوع - وفقا للأناجيل - وحتى آخر لحظة فى حياته ظل مؤمنا بالله الواحد الذى ناداه قائلا بالآرامية التى هى لغته: « إلهى إلهى» أى أنه نادى الإله الواحد الذى لاشريك له، والذى أتى ليبشر به لتلك « الخراف الضالة» التى حادت عن رسالة التوحيد، وهى العبارة التى تم خلطها باسم إيلوى أوباسم إيليا النبى الإسرائيلى لطمس معالم التوحيد ونسج عملية التثليث..

ولا نود أن ننهى هذه النقطة بتساؤل ساذج رغم كل ماكتب فيها من ردود غير مقنعة قائلين: إن كان السيد المسيح إلهاً أو مساوياً له، فكيف يعبد نفسه ويتضرع إليها ولانود أن نطرح سؤالا أكثر سذاجة رغم كل ماكتب فيه من ردود غير مقنعة أيضا قائلين: إذا ماكان السيد المسيح هو الله، فمن ذا الذى تولى شؤون إدارة الكون أثناء تجسده على الأرض؟ ! - خاصة وأن العقائد السائدة حاليا مازالت تختلف فى تعريف طبيعته!!

إلا أنه من المؤسف حقا أن نرى عملية التحريف هذه تستمر حتى يومنا هذا، بل وتمتد لتعبث بنصوص القرآن الكريم اختلاقا لأسانيد تؤيد هذا التزوير..

فها هو الباحث « أو ليفييه كاريه» - مديرالأبحاث فى المؤسسة القومية للعلوم السياسية بمركز الدراسات والأبحاث الدولية بفرنسا - يزعم فى كتابه الأخير الصادر فى نوفمبر ١٩٩٣م والمعنون: « الإسلام العلمانى»،قائلا - فى محاولة مغرضة للتقريب المزيف بين المسيحية والإسلام، تمشيا مع ذلك التيار السائد فى هذا العقد خاصة -: « من المؤكد أن العبارات التى يفندها القرآن لا تتعلق لا بالثالوث ولا بالتجسد أى تجسد الله فى المسيح الذى قالت بهما المجامع المسكونية - ما علينا ؛ وإنما مايتم رفضه إجمالا فهو « المبالغة المسيحية» والصمت المتواضع هو المطلوب من الذين يؤمنون بذلك حيال ما يخرج عن الإدراك الآدمى » !! (صفحة ١٠).

وهنا لا يسعنا إلا أن نقول للسيد الباحث ومدير الأبحاث فى تلك المؤسسة ارجع إلى القرآن لترى مايقوله فى هاتين النقطتين: التثليث وتجسد الله فى يسوع، وهما نقطتا الخلاف الأساسى بين المسيحية والإسلام، وليقرأ سيادته سورة « الإخلاص» أو الآية (١٧١) من سورة النساء ونصها : ﴿ **يأهل الكتاب لاتغلوا فى دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولاتقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له مافى السماوات وما فى الأرض وكفى بالله وكيلا**﴾ ؛ وليقرأ أيضا الآيتين (٧٢، ٧٣) من سورة المائدة ونصهما : ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يابنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرّم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار . لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب إليم**﴾ . أفلا تتوبون إلى الله؟!

إن« ما يخرج عن الإدراك الآدمى» هو عمليات التحريف ومحاولات فرضها حتى عن طريق الاغتيال . . والمطلوب حقا ليس«الصمت المتواضع» حيال مايكتشفه الأتباع من تحريف، وإنما إدانة كل هذا التعنت بصوت واضح.

كما نسوق تحريف آخر فى الثبت التاريخى لقاموس ميكرورويير وهو « قاموس ثقافة عامة» صادر عام ١٩٩٠م، ونقرأ أمام سنة ٩٣٥م مجرد عبارة من ثلاث كلمات لكنها تقول الكثير :« نهاية صياغة القرآن»!! وكأن صياغة القرآن قد استغرقت ثلاثة قرون تقريبا من القرن السابع إلي القرن العاشر! وذلك أسوة بما تم فى الأناجيل! فى الوقت الذى يعلم الجميع أن القرآن قد أنزل وتم تدوينه فى حياة الرسول ﷺ، ويكفى هؤلاء المحرّفون مراجعة كتاب الجهشيارى المعنون:« كتاب الوزراء والكتاب» ليدركوا أسماء الذين دونوه وتاريخ تدوينه. . بل من المعروف أن ثبات النص القرآنى منذ عهد الرسول ﷺ من أكثر الأمور التى تثير النفوس المريضة فى الغرب، ويجاهدون ـ منذ بداية انتشاره حتى يومنا هذا ـ للنيل منه.

يسوع:

لا نتناول شخصية عيسى ابن مريم هنا إلا للتأكيد على حقيقة أنه كان إنسانا مرسلا برسالة بعينها؛ إذ يقول:« الكلام الذى تسمعونه ليس لى بل للآب الذى أرسلنى » (يوحنا ١٤ : ٢٤)؛ ويورد إنجيل لوقا عبارة: « بالحقيقة كان هذا الإنسان باراً». (٢٣ : ٤٧) كما نقرأ فى أعمال الرسل: « أيها الإسرائيليون، اسمعوا هذه الأقوال يسوع الناصرى

رجل قد تبرهن لكم من قبل الله» (٢ : ٢٢) إلخ . .

بل هناك قول ليسوع لا يثبت أنه نبى فحسب، وإنما نبى سليط اللسان، الأمر الذى نرفضه نحن، كمسلمين، يفرض علينا القرآن الكريم الإيمان به كأحد الأنبياء، وبالتالى يوجب احترامه، ويقول إنجيل يوحنا فى الإصحاح العاشر: « فقال لهم يسوع أيضا: الحق الحق أقول لكم إنى أنا باب الخراف، جميع الذين أتوا قبلى هم سرّاق ولصوص. . أنا هو الراعى الصالح والراعى الصالح يبذل نفسه عن الخراف» (٧ ـ ١١)!

ولا نعتقد أن هناك من زعم فى الديانة التوحيدية السابقة بتجسد الآلهة.

فهى فكرة غير واردة فى العهد القديم فكيف يكون يسوع إلهاً ويتهم الآلهة التى أتت من قبله؟! ولا شك فى أن عبارة « جميع الذين أتوا قبلى» تقصد الأنبياء برمتهم وهى مقولة لا نقبل أن تنسب ليسوع كنبى، والتهمة الموجهة إليهم مرفوضة احتراما لمكانتهم كأنبياء، ولا يسعنا إلا ربطها بآخر الآية التالية « أنا هو الراعى الصالح»، التى تكشف عن أنانية مطلقة لاتتفق والإنسانية المفرطة التى أضفاها عيسى على الوصايا، وإنما كل هذا الجزء يجزم بالتحريف بغية إثبات عملية افتداء العالم ـ من جهة ـ لتبرير تبديل المعمودية بالختان، وفرض فكرة الخلاص ـ من جهة أخرى ـ لتبرير تنصير العالم وفقا للهدف الذى رسمه تيار التعصب الكنسى حفاظا على السلطة واستحواذا عليها. .

بل ما نود التأكيد عليه أيضا أن نفس عبارة« المسيح» لا يجوز إطلاقها عليه، فهى بالعبرية تعنى الممسوح أو المدهون بزيت« وتشير إلى ملوك إسرائيل الذين كانوا يمسحون بالزيت عند اعتلائهم العرش. وبعد اختفاء الملكية أصبحت تعنى قدوم منقذ ـ سواء أكان فردا أم جماعة، سياسياً (ملكا) أم روحياً، وفقا لمختلف الاتجاهات اليهودية» (grandes dates du Christianisme) وإذا نظرنا إلى الموضوع من هذا المنطلق فالعبارة لاتنطبق على يسوع؛ لأنه لم يكن ملكا بل آثر الموت على الملك ! وإذا نظرنا إليه من ناحية معنى نفس هذه العبارة باليونانية وهو « خريستوس»، المنشقة أصلاً من اسم الإله المصرى القديم حوريس لوجدنا أنه ما أكثر الأبحاث التى تثبت عدم جواز إطلاق هذه العبارة على يسوع، بغض الطرف عن كل ماتثيره من مواقف تم تفنيدها وإثبات افتعالها لاستخدامها فى قضية تخرج عن إطار هذا البحث، وهى قضية الألفية. .

وقد أدت كل عمليات الخلط والمزج والتحريف هذه إلى أن العديد من المؤرخين تشككوا حتى فى وجود يسوع نفسه ! ولا يعنى ذلك أننا نساق خلف مثل هذه التطرفات، لكننا ننضم إلى الذين يدينونها ويدينون ما أدت إليه من نتائج أبعد ماتكون عما بشر به يسوع. . ولا نشير هنا إلى مجرد الاختلافات العقائدية بين الفرق المسيحية

نفسها ولكن نشير أيضا إلى ما أدى إليه جعل المسيح مخلص ورب العالم ورفعه إلى مستوى التأليه والألوهية، إذ أدى ذلك « إلى استياء اليهود وسخطهم واعتبروه أعظم عار وأكبر فضيحة» (الفكر الإسلامى فى الرد على النصارى) ـ وهو الخلاف الذى لم يتم حله أو تخطيه حتى يومنا هذا رغم المصالحة السياسية المزعومة ـ وإن كان يكشف، من ناحية أخرى، أن عملية التأليه هذه مرفوضة منذ ابتداعها حتى يومنا هذا. وكلها خلافات يحاول البابا امتصاصها تحت مسمى توحيد الكنائس عملا بمقولة « فى الاتحاد قوة» على حد تعبيره، خاصة إذا ما مد هذه القوة لتشتمل على أبناء عمومته الذين ظلت الكنيسة تضطهدهم طوال ألفى عام..

وهنا نتساءل: ترى هل سيغض البابا الطرف عن هذا التاريخ الممتد المخضب بالدماء وكأنه لم يكن، أم سيعترف بخطأ المؤسسة الكنسية؟!

الأسرار أو الأسرار السبعة للكنيسة الكاثوليكية:

الأسرار هى: المعمودية، الميرون، مسحة المرضى، التوبة، الزواج، الكهنوت، والشكر أو الافخارستيا، وسنتناول أهمها باقتضاب:

سر المعمودية:

يعتمد على تغطيس الطفل أو الفرد فى المياة أو سكبها على الرأس كتعبير عن التطهر من الخطيئة الأولى، وهى من العادات المصرية القديمة، وانتقلت إلى التراث اليهودى فى العهد القديم، ثم انتقلت منه بالتبعية إلى العهد الجديد. والقول بأن يسوع هو الذى ابتدع المعمودية قول غير صحيح تاريخيا بدليل وجود الطقس من قبله، وبدليل قيام يوحنا المعمدان بتعميد يسوع؛ هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى، فإن المطالبة بالتعميد على لسان يسوع فى آخر إنجيل متى (٢٨: ١٩) لا تضفى أية شرعية على هذا الطقس، بل على العكس من ذلك إنها تثبت تلاعب الأيادى العابثة بالأناجيل لتبرير ماقام به بولس من تحريف للعقيدة المسيحية بإلغائه الختان ـ الذى يمثل العهد الذى فرضه الله « عهداً أبدياً» وقيامه بفرض المعمودية بدلا عنه!

سر الميرون:

ويعنى وضع اليد على رأس الشخص الذى يتم تعميده لإحلال الروح القدس بعد الغطاس، وهو أيضا من الطقوس القديمة المتوارثة عن المصرى القديم، ومنها انتقل إلى التراث اليهودى، وهو وارد فى سفر اللاويين فى عشرات الآيات.. وأول من مارسها فى المسيحية هم الرسل، إذ كانوا يضعون أيديهم على المعمدين، مع العلم بأن « الروح

القدس لم يكن قد حل بعد على أحد منهم» وفقا لما ورد فى الأناجيل السائدة حاليا (أع ٨: ١٤ ـ ١٨) فأيهما نصدق؟!

ثم نطالع فى أحد الكتيبات الدينية: « ولما ازداد عدد المؤمنين نظرا لانتشار الدين المسيحى فى سائر أنحاء العالم أصبح متعذرا على الرسل أن يطوفوا فى كل مكان لكى يضعوا أيديهم على المعمدين؛ لهذا رأى الرسل تحت قيادة الروح القدس وإرشاده أن يستبدلوا وضع الأيدى بالميرون المقدس»! (القمص دميان يوسف: « حوار فى السبعة أسرار») .

وهنا لابد من تعلىق عابر على هذا النص المكتوب عام ١٩٨٩م، والذى يكشف بكل أسف عن استمرار التلاعب بالألفاظ وبعقول الأتباع أو القراء، فالحديث عن أيام الحواريين بطرس ويوحنا اللذين كانا يبشران فى السامرة بعد وفاة يسوع مباشرة، أى فى الوقت الذى لم تكن فيه المسيحية قد عُرفت بعد، بل كانت تحارب بضراوة.. ثم يتحدث نيافة القمص عن « انتشارها فى العالم بأسره أيام الرسل»؟!!

ومن ناحية أخرى نطالع فى نفس هذا المرجع: « لقد اختارت الكنيسة زيت الميرون المقدس ليكون علامة الروح لأنها رأت أن الله كان يمنح الروح القدس للملوك وكهنة العهد القديم بهذه العلامة عينها، والله يأمر موسى فى العهد القديم قائلا: « وأنت تأخذ لك فخر الأطياب.. وتضعه دهنا مقدسا للمسح وتمسح به خيمة الاجتماع وتمسح هرون ونبيه وتقدسهم ليكونوا لى» (خر ٣٠: ٢٢ ـ ٣١) ومن هنا يتضح أن مادة الميرون ليست من اختيار البشر وإنما أخذتها الكنيسة من العهد القديم » (صفحة ٧١).

ولا نذكر شيئا هنا أيضا عن الأصل المصرى، القديم لطقس الدهان والمسح بالطيب المقدس وانتقاله أيضا إلى التراث اليهودى، لكننا نتساءل : كيف يمكن اعتبار هذا الميرون وسره من الطقوس الأساسية المنزّلة ـ كما يقولون ـ ثم نقرأ « إن بولس وبوحنا، مؤلف الإنجيل الرابع، قد أدارا ظهرهما كلية لليهودية»! - Emcycl. Bordas: philo. Relig ions 232.2) - بل لقد قال بولس فى رسالته إلى أهل غلاطية: « إن كان بالناموس برٌ فالمسيح إذاً مات بلا سبب» (الإصحاح الثانى: ٢١) .. أى مامعناه: إذا كان العدل ينجم عن التوراة فإن المسيح قد مات هباء .. وكأن فاعلية أو جدوى موت يسوع مرتبط بإلغاء التوراة والإيمان به وحده وببعثه!! ويبلغ التناقض مداه حينما نطالع فى الإصحاح التالى مباشرة، الآية العاشرة: « لأنه مكتوب ملعون كل من لا يثبت فى جميع ماهو مكتوب فى كتاب الناموس ليعمل به» .. ويحار المرء أى آية يصدق؟ ويظل التساؤل :

كيف يقوم بولس بإلغاء العهد القديم وتظل الكنيسة محتفظة بأحد تعاليمه وتعتبرها من أسرارها الأساسية ؟

سر الزواج:

يمثل هذا السر ـ وفقا لبولس الرسول ـ زواج السيد المسيح من الكنيسة، لذلك أوضح أن زواج الرجل بامرأته يمثل «الاثنان جسدا واحدا» وهذا الربط فى معنى الزواج الرمزى الدينى والاجتماعى أدى إلى استحالة قبول فكرة الطلاق فى المسيحية وجعل الزواج أبدياً، وإلا فإن انفصال الزوجين يرمز إلى إمكانية انفصال يسوع والكنيسة!!

ومازالت هذه القضية من الأمور المختلف عليها بين الكنيسة والأتباع، بدليل اهتمام البابا يوحنا بولس الثانى بها وإصراره على رفض مبدأ الطلاق رغم كل ما يتعرض له من ضغوط وانتقادات، فهذه النقطة بالذات من أكبر المشاكل التى يعانى منها الأتباع ويتحايلون عليها . .

سر الشكر أو الإفخارستيا:

يقول النص الوارد فى إنجيل يوحنا: « فقال لهم يسوع: الحق الحق أقول لكم إن لم تأكلوا جسد ابن الإنسان وتشربوا دمه فليس لكم حياة فيكم. من يأكل جسدى ويشرب دمى فله حياة أبدية وأنا أقيمه فى« اليوم الأخير لأن جسدى مأكل حق ودمى مشرب حق . من يأكل جسدى ويشرب دمى يثبت وأنا فيه» (٦: ٥٣ ـ ٥٦)

ودون المساس بمصداقية هذا النص من الناحية التاريخية، فمن المعروف أن هذا الطقس وطقس المعمودية يمثلان أهم أسرار المسيحية، ومع ذلك فهو مثار خلاف حتى يومنا هذا: فبالنسبة للكاثوليك: إن الخبز والنبيذ يتحولان فعلا فى المناولة إلى لحم السيد المسيح ودمه، بينما يعد هذا الطقس رمزا روحيا فحسب لدى أتباع «كالڤن».

ويقول « جيرالد ميساديبه» (فى كتابه : « مُشعل الحريق»): « لا يوجد أى دليل على أن هذا الطقس كان سائدا من قبل، كما أننا نعلم أن بولس هو أول من أقام طقس الإفخارستيا» بينما يوضح المؤرخ« أرنولد توينبى » الجانب التاريخى قائلا: « إن القربان الذى يمثل الطقس الأكبر للمسيحية هو عملية انتقال للعبادة السائدة فى البحر الأبيض المتوسط لأحد آلهة الإنبات وعناصر الخبز والنبيذ هى من المنتجات المحلية» (التاريخ).

الأناجيل:

نطالع تحت عنوان« مشاكل نقدية وتاريخية » فى موسوعة بورداس الفلسفية الدينبة الصادرة عام ١٩٨٠م مايلى: « لقد تخلى المفسرون فى العصر الحديث عن الفكرة القائلة

بأن نصوص الأناجيل منزلة، وأن الله قد أملاها على الناس كلمة كلمة وحرفا حرفا»! وإذا ماكانت هذه العبارة الحاسمة تتعلق بالعصر الحديث، فذلك لا يعنى أن مصداقية نصوص الأناجيل لم تثر الانتقادات إلا فى هذا القرن.. فمن الثابت تاريخيا أن العقيدة المسيحية الحالية قد عرفت عشرات بل مئات الانقسامات والمعارضات منذ أن قام بولس الرسول بتحريفها، وذلك بمناقضة أقوال السيد المسيح، ورفضه التوراة وتغييره العهد، أى استبدال المعمودية بالختان الذى فرضه الله« فرضا أبديا».. وذلك فى الوقت الذى قال فيه يسوع: لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء ماجئت لأنقض بل لأكمل» (متى ٥: ١٧)!!

وما أكثر المراجع التى تناولت تحريف بولس للعقيدة المسيحية..

ولقد عرفت القرون الأولى أكثر من عشرين انقساما أو عقيدة منشقة، احتجاجا أو تصويبا لما قام به بولس من تحريف.. وكان لكل من هذه الجماعات أناجيلها وكتاباتها بل إن يوحنا الدمشقى (٦٧٥ - ٧٤٩) يورد فى كتابه المعنون: «منبع المعرفة» الذى قام بتحليل العلاقة بين الإنسان والحرية، والذى كتبه عام ٧٤٢م، مائة وثلاث عقيدة وانقساما، يعتبرها هرطقات منشقة عن المسيحية، ومنها الإسلام! ومن المؤسف أنه كان يعرف الإسلام عن قرب، إذ أنه عاش فى بلاط الخلفاء. راجع: (المسيحيون بين الديانات).

ومن المعروف أن الأناجيل الحالية ظلت فى تغيير مستمر حتى المجمع المسكونى المعروف باسم مجمع ترانط المنعقد من عام ١٥٤٥م إلى ١٥٤٩م، ثم من عام ١٥٥١م إلى ١٥٥٢، ومن عام ١٥٦٢إلى ١٥٦٣.. أى أنه انعقد على مدى ثمانية عشر عاما تقريبا، قام خلالها باعتماد وفرض كل ماجرى من تعديل وتحريف يمثل المسيحية فى شكلها الحالى.. أى أنه حتى القرن السادس عشر لم تكن الأناجيل الحالية قد استقرت بعد، لكى لا نقول شيئا عن الاختلافات التى يلاحظها الباحث من طبعة إلى طبعة حتى يومنا هذا.. (راجع: الطبعة الثالثة. لكتاب المستشار: منصور حسين عبد العزيز: دعوة الحق أو الحقيقة بين المسيحية والإسلام، الصادرة عام ١٩٩٤م).

وقد أشار العديد من الباحثين إلى آلاف التخريفات، وأورد الباحث رحمة الله خليل الرحمن الهندى نصوصا تثبت ثلاثين ألف اختلاف فى نصوص الأناجيل برمتها! فكيف يمكن أن يقال: «إنها منزلة»؟ بل كيف يمكن للبابا يوحنا بولس الثانى، الذى يتغنى بالحقيقة وروعتها، أن يواصل ترديد هذه العبارة فى كل خطبه الرسولية، وخاصة خطابه الأخير، موضوع هذا البحث؟!

وما إن جاء عصر النهضة حتى كانت معلومة« تحريف الأناجيل» من الأفكار السائدة المثبوتة علميا، وأنها لا تتفق فيما بينها ولا فيما بين كتبها ورسائلها المختلفة. ثم أتى عصر التنوير الذى قام ـ من ضمن ماقام ـ للمطالبة بدراسة النصوص الإنجيلية، وتحقيق ترجماتها على الأصول القديمة، وفى نفس تلك الفترة بدأت الانقسامات الكبرى فى العقيدة المسيحية، حتى بات من الشائع أنه ما من ديانة ـ فى العالم ـ قد تعرضت لمثل هذه الانقسامات والتشعبات كالمسيحية منذ نشأتها!

ولقد أصبح من المحال ـ فى عصرنا هذا ـ التعرض للأناجيل دون الأخذ فى الاعتبار أعمال العديد من الآباء الذين يحاربون تحريف النصوص وتزييفها، خاصة فى مطلع هذا القرن.

الأمر الذى أدى إلى إيجاد علم الحداثة، الذى يعنى دراسة النصوص الإنجيلية بناء على الاكتشافات العلمية الحديثة التى لم تعد معطيات الأناجيل تتفق وإنجازاتها ومن أهم الأبحاث التى دارت فى هذا المجال ماقام به «موريس بوكاى»، إذ أثبت أن كافة معطيات الإنجيل والتوراة لا تصمد أمام العلم، بينما كافة معطيات القرآن صحيحة ثابتة لاتهتز بل لقد أوضح أن هناك ماورد فى القرآن ولم تكن العلوم الحديثة قد توصلت إليه بعد وثبتت صحتها علميا .

وقامت المواجهة الدامية بين المطالبين بالبحث والدراسة لاستبعاد ماأطلقوا عليه «الشوائب»، وبين المتعصبين المتمسكين بكل ماتم من تحريف فى العقيدة الأمر الذى أدى إلى إيجاد تعبير « الأصوليين » أى المتمسكين بالأصول كما هى، بكل ما أجرى فيها من تحريف ـ وهنا لابد من توضيح أن معنى « الحداثة» « والأصولية» فى المجال المسيحى يختلف تماما عنه فى أى مجال آخر، وخاصة فى الإسلام إذ أن فرض الحداثة على الإسلام يعنى تحريفه، وتعبير الأصولية فى الإسلام يعنى التمسك بالقرآن المنزل والسنة التى لم تحرّف!

أى أنه منذ مطلع هذا القرن، وخاصة منذ قرابة انتصافه، لم يعد من الممكن إغفال أعمال حاسمة الأهمية كأبحاث الأب «رودلف بولتمان» التى هزت الغرب بكل ماكشفت عنه من حقائق وتحريف، ولا أعمال ديبون ـ سومير، أو درويرمان، أو الأسقف لوفيفر، أوكازانوفا أو لوازى ـ وكلهم قد حرمتهم الكنيسة! ولا يسع المجال هنا لذكر قائمة تمتد لتضم مئات الأسماء خاصة إذا ما أضفنا إليها العلماء والباحثين غير اللاهوتيين أو غير الكنسيين.

كما لا يمكن تناول الأناجيل دون الأخذ فى الاعتبار بالاكتشافات والحفائر الحديثة،

وبخاصة المخطوطات المعروفة باسم مخطوطات قمران أو البحر الميت، المكتشفة عام ١٩٤٧م ، وكذلك مخطوطات نجع حمادى، المكتشفه عام ١٩٤٥م. فالمجموعة الأولى تثبت وجود جماعة دينية باسم الأسينيين، قد عاشت منذ حوالى ألفى عام، وقد عثر على وثائقها فى أحد عشر مغارة حول البحر الميت بالأردن. وهى مخطوطات مكتوبة بالعبرية القديمة وبالآرامية، وتنقسم هذه المخطوطات إجمالا إلى قسمين: إحدهما يتعلق بالعهد القديم، بينما يتعلق الآخر بالطائفة نفسها ويثبت أنها النواة الأولى للمسيحية بل لقد كان رئيسهم المعروف باسم « سيد العدالة» قد تعرض لنفس عملية الصلب من فرق الرومان أيام احتلالهم مدينة القدس عام ٦٣ ق. م.

ولقد أثبت العديد من الباحثين، ومنهم متخصصون فى اللاهوت، أن السيد المسيح قد عاش معهم ودرس تعاليمهم فى تلك الفترة التى لا تذكر فيها الأناجيل المعتمدة الحالية أى شىء عن مرحلة تكوينه! لذلك يحاول بعض الآباء الكاثوليك « لَىّ نصوص» هذه المخطوطات ونقل وقعة صلب « سيد العدالة» إلى نهاية الفرن الميلادى الأول لإبعاد الشبه الحميم بينها وبين مايفرضونه على السيد المسيح (راجع موسوعة بورداس، الفلسفة والدين) الأمر الذى يؤكد صحة الآية القرآنية القائلة: ﴿ **وماقتلوه وماصلبوه ولكن شبه لهم**﴾ [النساء: ١٥٧].

أما مجموعة مخطوطات نجع حمادى فهى تضم العديد من الأناجيل التى تكشف عملية الحجب والتعتيم التى حكبت عبر المجامع. .

وهنا لابد من الإشارة إلى العدبد من الأبحاث الحديثة التى تناولت رسائل بولس الرسول وخطبه من أمثال روبير آمبلان، جونتر بورنكام، انطونى نيريل هانسن، هيام ماكوبى، ألبير شفايتزر، خوان لويس سجوندو وغيرهم، وجميعهم يلتقون فى دهشة واحدة على حد فول ج . آ. ويلز ناجمة عن « أن الرسائل والخطب لا تذكر أى شىء على الإطلاق عن حياة يسوع: لا تاريخ أو مكان ميلاده ولا محاكمته، ولاشىء عن القدس بصفتها المكان الذى « صلب» فيه. كما أنها لا تتحدث عن يوحنا المعمدان، ولا يهوذا، ولا تنكّر بطرس له والذى لا يتحرج بولس من اتهامه باللؤم. . بل لا تقول شيئا عن أن يسوع قد « قتل» إن كل المادة الأساسية التاريخية للأناجيل، المعتمدة منها أو المستبعدة، قد أفرغت ببساطة، بما فى ذلك المعجزات التى قام بها يسوع. إن يسوع فى تبشير بولس ينتقل إلى مستوى التجريد بل إن المرء لا يلحظ منها أن يسوع كان معلما أخلاقيا، وأن علم أخلاق بولس ومفاهيمه هى التى تسيطر بدلا عن تعاليم يسوع» .

كما تجدر الإشارة إلى ماقاله الأب كارل رانير بصدد المجمع المسكونى الفاتيكانى

الثانى، موضحا كيف أنه أصبح من الصعب تصديق الأناجيل من كثرة ماتم بها من تحريف مفروض على المعانى الأصلية للنص؟ وكيف « أن هنا المشاكل أصبحت تبدو أكثر صعوبة بسبب التقدم السريع المذهل فى العلم وفى مجال التاريخ الأول للمسيحية: ففد أصبح من الصعب على الكنيسة الكاثوليكية حاليا آن تتمسك بالطابع التاريخى لنصوصها وأصبح لزاما عليها آن تعترف - مرغمة - بطابعها الأسطورى والخيالى. وقد ألح العديد من رجال الكهنوت فى المجمع على ضرورة القيام بمثل هذه المراجعات حتى لا يصاب الأتباع بإحباط، ولا يتعرض المثقفون لفضيحة، وحتى لا تتعرض العقيدة الكاثوليكية نفسها للسخرية ويقع رجال التفسير الكاثوليكى فى مأزق، وحتى لا يطول الصمت للرد على أبحاث الأب البروتستنتى روءلف بولتمان الذى وصل فى كشفه عن تحريف النصوص الإنجيلية إلى ابعد الحدود.. وهى القرائن التى استعان بها الأسقف ج. أ .ت. روبنسن فى كتابه المعنون « أوفياء إلى الله» الذى لاقى نجاحا منقطع النظير.. والسلطة الكاثوليكية لم يكن بوسعها عدم التعرض لهذه الضرورات ذات العواقب التى لن تحصى فى السنوات المقبلة».

وهنا لابد من أن نضيف ماقاله الأب لورنتان فى تحليله للمناقشات التى دارت حول الوحى قائلا: « إن ما نخشاه بالفعل هو أن الكنيسة قد بدأت حوارها مع ممثلى البروتستانتية التقليدية، بينما الجيل الصاعد قد تشرب ونما على مدرسة بولتمان، وبذلك فإن هذا الحوار الذى آقامه الفاتيكان فد تم تخطيه» .. آى أن ما أسفر عنه ذلك المجمع المسكونى الفاتيكانى الثانى قد تم تخطيه فى الواقع، وآن الزمام قد آفلت من الكنيسة، وهو ما يفسر ذلك الإيقاع المحموم للبابا يوحنا بولس الثانى فى استعادة « خرافه الضالة» وفرض قبضة من حديد عليهم وعلى بنيانه الكنسى المتصدع.

ومن ناحية آخرى، فإن الإدانات الموجهة ضد العبث الذى تم بالأناجيل ليست وليدة اليوم، بل هى امتداد لأصوات ارتفعت منذ القرون الأولى تحذر من ذلك التحريف الذى يتم بنصوصها ولا نذكر سوى سلسوس، الفيلسوف الآفلاطونى، إذ يقول فى القرن الثانى الميلادى، فى كتابه المعنون: « الخطاب الحقيقى» (le Discours veritable). « إن المسيحيين بدلوا أناجيلهم ثلاث أو أربع مرات بل أزيد من هذا كما بُدلت مضامينها»..

فكيف يصر نيافة البابا ويكرر فى خطابه أنها « نصوص منزلة» ؟! بل كيف يصر نيافته على فرض هذه العقيدة المحرفّة على العالم أجمع لتبدأ الألفية الثالثة وقد تم تنصير العالم تحت لواء كاثوليكية روما؟!

الوصايا:

تنص الوصايا، كما هي واردة في سفر الخروج، الإصحاح العشرون، من طبعة ١٩٦٦م على مايلي: « ثم تكلم الله بجميع هذه الكلمات قائلا: أنا الرب إلهك الذى أخرجك من أرض مصر من بيت العبودية. لا يكن لك آلهة أخرى أمامى لاتصنع لك تمثالا منحوتا ولا صورة ما مما فى السماء من فوق وما فى الأرض من تحت وما فى الماء من تحت الأرض لا تسجد لهم ولا تعبدهن لأنى أنا الرب إلهك إله غيور افتقد ذنوب الآباء فى الأبناء فى الجيل الثالث والرابع من مبغضى واصنع إحسانا إلى ألوف من محبىّ وحافظى وصاياى. لا تنطق باسم الرب إلهك باطلا لأن الرب لايبرىء من نطق باسمه باطلا. اذكر يوم السبت لتقدسه. ستة أيام تعمل وتصنع جميع عملك. وأما اليوم السابع ففيه سبت للرب إلهك. لا تصنع عملا ما أنت وابنك وبنتك وعبدك وأمتك وبهيمتك ونزيلك الذى داخل أبوابك لأن فى سته أيام صنع الرب السماء والأرض والبحر وكل مافيها. واستراح فى اليوم السابع. لذلك بارك الرب يوم السبت وقدسه ـ أكرم أباك وأمك لكى تطول أيامك على الأرض التى يعطيك الرب إلهك، لاتقتل لاتزن ـ لاتسرق، لا تشهد على قريبك شهادة زور لا تشته بيت قريبك لاتشته امرأة قريبك ولاعبده ولا أمته ولاثوره ولاحماره ولا شيئا مما لقريبك» (١ ـ ١٧).

وينتهى الإصحاح بتكرار وصية عدم الشرك بالله والنص على البساطة والتقشف فى بيت العبادة، إذ تنص الآية(٢٣) ومابعدها من نفس الإصحاح على: « لا تصنعوا معى آلهة فضة ولا تصنعوا لكم آلهة ذهب. مذبحا من تراب تصنع لى . . وإن صنعت لى مذبحاً من حجارة فلا تبنه منها منحوته، إذا رفعت عليها أزميلك تدنسها».

وتنقسم هذه الوصايا إجمالا إلى وصايا توحيدية، وتشريعية، وأخلاقية، لنخرج منها: بالتوحيد وبأنه لا إله إلا الله؛ وبتحريم الصور والتماثيل إن كانت للعبادة والشرك بالله؛ وبتواصل ذنب الآباء حتى الجيل الثالث أو الرابع فى الأبناء؛ والقيام بأعمال الدنيا طوال سته أيام من الأسبوع وبتقديس يوم السبت لأن الرب قدسه؛ وبالنهى عن البزخ فى دور العبادة.

ثم جاء السيد المسيح، الذى أتى مكملا للناموس وغير ناقضا له أو للأنبياء (متى ٥: ١٧)، ليضفى على هذه الوصايا ـ فى خطبة الجبل ـ نزعة إنسانية فائقة، مضيفا إليها وصية الحب، المثلة فى حب الآخر كحب الإنسان لنفسه (متى ١٩ : ٢٩) وإن لم يكن هو أول من قالها فى الواقع، إذ نراها واردة بنصها فى سفر اللاويين (١٩: ١٨)!

ثم يزيد يسوع من قيمة هذا الحب قائلا: « هذه هى وصيتى أن تحبوا بعضكم بعضا

كما أحببتكم ليس لأحد حب أعظم من هذا أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه» (يوحنا ١٥ : ١٢ ـ ١٣) . . أى أنه قد أضاف بالفعل التضحية بالذات من أجل حب الآخرين.

وما إن انتقل السيد المسيح حتى بدأ تحريف الرسالة بعد وفاته على أيدى بولس الرسول (وذلك ماتؤكده العديد من الأبحاث التى لا نذكر منها سوى أعمال سميث، ولوتجرت، وشميتال ، وإيكر، ومونك ، ومايو، وميساديه) ولانتعرض إلى هذه النقطة إلا لارتباطها الشديد بالخطاب الرسولى الذى نحن بصدده. فما إن بدأ التحريف آنذاك حتى دبت الخلافات بين الحواريين فى مجمع القدس وخاصة بين بولس وبطرس، وقد أورد ميساديه، فى كتابه عن « بولس، مشعل الحريق»، كيف أنهما تبادلا السب والاتهام باللؤم وسوء النية والهرطقة! وإن كانت الأناجيل تحاول غض الطرف عن هذه الوقائع إلا أن أصداءها تتردد فيما بين الرسائل وأعمال الرسل!

وخرج بولس من هذه المعارك بأن فرض وجهة نظره وقام بتغيير العقيدة . . بل هناك من يطرح فكرة أنه اعتنق المسيحية ليجرفها بعيدا عن مسارها. . ومايعنينا فى هذه النقطة بالذات هو إلغائه الناموس، أو التوراة، بما فى ذلك الوصايا، واستبداله المعمودية بالختان، بانياً تبشيره على الإيمان بيسوع وبعثه لأن العقيدة اليهودية قد انتهت، أى أنه بنى تبشيره على الإيمان بالبعث، الذى اعتبره النسق الجديد، وليس على رسالة يسوع. وبذلك أصبحت الديانة المسيحية هى الديانة الوحيدة بين الديانات التوحيدية الثلاث التى تقوم على شخص محورى هو يسوع وليس على التوحيد بالله .

ولا يوجد دليل أوضح من رسالة بولس إلى أهل غلاطية التى يتجلى فيها اللعب بالألفاظ وبالحقائق التاريخية . . . ويصل تحايله إلى الذروة بأن جعل من عملية الصلب ـ التى تمثل قمة الإهانة عند اليهود أوهى الفضيحة بعينها ـ وتحويلها من لعنة إلى مفهوم جديد يمثل الفداء، إذ نراه يقول: « . . أبأعمال الناموس أخذتم الروح أم بخبر الإيمان؟ أهكذا أنتم أغبياء أبعد ما ابتدأتم بالروح تكملون الآن بالجسد [أى بالختان]. . . كما أمن إبراهيم بالله فَحُسب له براً. اعلموا إذا أن الذين هم من الإيمان أولئك هم بنو إبراهيم» . والكتاب إذ سبق فرأى أن الله بالإيمان يبرر الأمم سبق فبشر إبراهيم أن فيك **تتبارك جميع الأمم** إذا الذين هم من الإيمان يتباركون مع إبراهيم المؤمن؛ لأن جميع الذين هم من أعمال الناموس هم تحت لعنة؛ لأنه مكتوب ملعون كل من يثبت فى جميع ما هو مكتوب فى كتاب الناموس ليعمل به. . ولكن الناموس ليس من الإيمان. . المسيح افتدانا من لعنة الناموس إذ صار لعنة لأجلنا؛ لأنه مكتوب ملعون كل من عُلق على خشبة لتصير بركة إبراهيم للأمم فى المسيح يسوع لننال بالإيمان موعد الروح. . .

وأما المواعيد فقيلت فى إبراهيم وفى نسله. لا يقول وفى الأنسال كأنه عن كثيرين بل كأنه عن واحد فى نسلك الذى هو المسيح. . » (٣: ٢ ـ ١٦).

وأول ما نخرج به من هذه الرسالة هو اتهام بولس لأهل غلاطية بالغباء لالتزامهم بالختان وأنه لابد من اكتفائهم بالإيمان ! وضرب لهم مثال سيدنا إبراهيم الذى آمن بالله فحسب، فكافأه على إيمانه، وإذا مارجعنا إلى نص الآيات فى سفر التكوين لأدركنا كيف قام بولس الرسول بتحريف النص إذ نقرأ فى سفر التكوين :« أما أنا فهو ذا عهدى معك **وتكون أبا لجمهور من الأمم فلا يدعى** بعد اسمك أبرام بل يكون اسمك إبراهيم لأنى أجعلك **أبا لجمهور من الأمم**... وأقيم عهدى بينى وبينك وبين نسلك من بعدك فى أجيالهم عهدا أبديا. . هذا هو عهدى الذى تحفظونه بينى وبينكم وبين نسلك من بعدك يختن منكم كل ذكر فتختنون فى لحم غرلتكم فيكون علامة عهدٍ بينى وبينكم ابن ثمانية أيام يختن منكم كل ذكر فى أجيالكم وليد البيت والمبتاع بفضةٍ من كل ابن غريب ليس من نسلك. يختن ختانا وليد بيتك والمبتاع بفضتك فيكون عهدى فى لحمكم عهدا أبديا. وأما الذكر الأغلف الذى لا يختن فى لحم غرلته فنقطع تلك النفس من شعبها إنه قد نكس عهدى » (١٧ : ٤ ـ ١٤).

وأول مانشير إليه هو أن نص العهد القديم قال:« **أبا لجمهور من الأمم**» ولم يقل«**جميع الأمم**» كما حرفها بولس، والفرق شتان بين التخصيص والتحديد أو التعميم، أما تلاعبه بلفظ نسل وأنسال ليقصر سلالة إبراهيم على يسوع؛ فأوضح من أى تعليق فإسماعيل هو الابن البكر لإبراهيم والأكبر من إسحاق بأربعة عشر عاما.

ولا يسعنا إلا أن نتساءل بأى حق يقوم أحد الحواريين بإلغاء هذا العهد الأبدى وإلغاء الناموس برمته بعد أن أضفى على نفسه لقب رسول؟! والغريب أن نطالع فى أحد المراجع الغربية عن الكنيسة القبطية:« أن الأقباط يختتنون من باب النظافة الصحية»!! والأكثر غرابة أن ترد هذه العبارة على لسان الأب بول بورجيه فى كتابه عن «الأقباط». . وكان الأجدر به كأحد رجال الإكليروس المفترض فيه الأمانة الموضوعية، أن يقول: إن هذه النقطة تمثل إحدى الخلافات الجوهرية بين الكنيسة القبطية والكاثوليكية!

ولم نسرد كل ماتقدم إلا لسبب واحد هو: أن البابا يوحنا بولس الثانى قد أسس خطابه الرسولى الأخير على الوصايا بكلها، مطالبا بضرورة الالتزام بها، وبأنها تمثل الحجر الأساسى للأخلاق الكاثوليكية. وهنا لا نملك إلا أن نتساءل: أيهما نصدق: بولس «الرسول» الذى ألغى الناموس برمته بما فيها الوصايا ليفرض الإيمان بيسوع

وبعثه؟! أم نصدق البابا يوحنا بولس الثانى الذى يتحايل بالنصوص لإثبات رأيه تبريراً لعملية تنصير العالم التى يقودها وحددها بنهاية هذا العقد؟!

وقبل أن ننهى هذه النقطة لابد من الرجوع إلى بدايتها وهى الوصايا ـ لنجد أن هناك أكثر من نقطة قد خالفتها الكنيسة على مر العصور، ومنها: الشرك بالله بدلا عن التوحيد بجعلها يسوع مساويا لله عز وجل؛ إباحة التصوير والنحت فى مجمع نيقيا المسكونى الثانى المنعقد عام ٧٨٧ لحسم معركة الأيقونات القائمة بين رجال الكنيسة من ناحية، وبين رجال الكنيسة والحاخامات من ناحية أخرى، وتحول هذه الأيقونات إلى تمائم يتعبدها الأتباع؛ فرض الخطيئة الأولى على كافة الأجيال والأتباع فى حين أن النص يقول لفترة ثلاثة أو أربعة أجيال ـ وإن كان هناك نص آخر يقول: إن خطايا الآباء لا يتوارثها الأبناء. فرض يوم الأحد كيوم راحة بدلا عن يوم السبت، ويبرر البابا يوحنا بولس الثانى إصراره هذا على التحريف ـ رغم مصالحته مع اليهود بعد تبرئتهم من دم المسيح ـ قائلا فى « كتاب التعليم الدينى» الجديد الذى أصدره فى نوفمبر ١٩٩٢م: « إن يوم الأحد يمثل أول الأيام عقب يوم السبت ـ والتحايل بالألفاظ هنا أوضح من أى تعليق ـ أما بذخ الكنائس وما اتسمت به من كتل من الذهب والمجوهرات، أو حتى ثياب رؤسائها المحلاه بأغلى أنواع الفراء ونفائس الأقمشة ومقارنتها« بمذبح من تراب» كما تقول الآية ـ فلا تعليق أيضا.

ولاشك فى أن كل هذه التجاوزات تمثل جزءاً من الخلافات الداخلية التى تعانى منها الكنيسة ومن وقع انعكاساتها على الأتباع، كما أنها تمثل بعضا من أهم المتناقضات الواردة فى خطاب« روعة الحقيقة». .

وبعد هذا العرض الخاطف لأهم المتناقضات القائمة والثابتة تاريخيا ووثائقيا فى العقيدة بشكلها الحالى، لا نملك إلا أن نتساءل: كيف يمكن لنيافة البابا أن يصر على فرض الكاثوليكية الفاتيكانية لا على أتباعه فحسب، وإنما على العالم أجمع؟! وكيف يمكنه الإصرار على أنها الخط الوحيد السليم للعقيدة، والتمسك بعدم تغيير أى شىء فيها؟!

أما اعتبار الوصايا كحجر أساس للأخلاق الكاثوليكية ـ وخاصة وصية الحب وحب الآخر أو القريب بدرجة التضحية بالذات فلا نملك هنا أيضا إلا أن نسأل نيافته:

ترى هل ماقامت به الكنيسة منذ نشأتها ضد أتباعها المنشقين وماقامت به ضد الإسلام منذ ظهوره وبداية انتشاره، بل وما تقوم به حاليا من محاصرة وإبادة للإسلام

والمسلمين (*) ـ هل يندرج تحت الحب والتسامح ؟! أن تكون الوصايا بصفتها دينا توحيديا حنيفا ملزمة للأتباع، فلا يمكن لأحد أن يعترض عليها. أما أن يتم تحريفها لتستخدم كأداة قمع وقهر ملطخة بالدماء فلا نرى من يمكنه تقبل ذلك .

والمطالبة باعتبار تصرف يسوع وأعماله ومبادئه بمثابة القاعدة الأخلاقية للحياة المسيحية، فذلك هو نفسه مايطالب به المعترضون على التحريف فى كل مكان، لكن السؤال هنا: أية أعمال وأية تصرفات؟ المنسوجة عبر المجامع أم الحقيقية التى تم التعتيم عليها؟!

وليس المطلوب من أحد أن يغير عقيدته لكن مايطالب به الأمناء من الباحثين من رجال اللاهوت أو من المدنيين، والذين نضم صوتنا إليهم، هو أن يكف التيار المتعصب فى المؤسسات الكنسية عن تلاعبه الأكمه بالدين، وأن يحترم عقائد الآخرين، وبخاصة الإسلام الذى أتى مصوبا ومكملا للعقيدة التوحيدية، وكاشفا لما تم فيها من تحريف بأيدى المتعصبين من رجال كهنوتها ـ وهنا لا يسعنا إلا أن نقول: ﴿ **فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون** ﴾ [البقرة: ٧٩]. .

(*) راجع كتابنا: «محاصرة.. وإبادة ـ موقف الغرب من الإسلام» .

٢ ـ الكنيسة والأزمة

من خلال تناولنا لهذه النقطة سنتعرض لنبذة خاطفة عن بولس الرسول، المؤسس الحقيقى للعقيدة المسيحية الحالية؛ ولأهم المجامع، بصفتها القناة السلطوية التى اعتمدت عليها الكنيسة كلما احتاجت إلى إضفاء شرعية رسمية على تجاوزاتها السياسية والدينية؛ ومنها إلى الكاثوليكية كمذهب « عالمى وحيد» يحاول التيار المتعصب بزعامة البابا فرضه على العالم أجمع؛ ومجمع الفاتيكان المسكونى الثانى كنقطة تحول جذرية للكنيسة الكاثوليكية وأهم أبعاد الأزمة الراهنة التى يواجهها الكرسى الرسولى. .

مازالت كافة المراجع العلمية التى تتناول نشأة المسيحية تجمع على صعوبة إن لم يكن استحالة القيام بعمل ثبت زمانى لرحلات بولس الرسول وتحركاته. . الذى بدأ تبشيره باتباع منهج بسيط: إذ اتجه أولا إلى معابد اليهود لينبئهم بالخلاص. إلا أنهم عادة ماكانوا يطردونه بعيدا، فاتجه إلى الوثنيين . . وكان يؤكد أن التوراة لم تعد صالحة وأن الخلاص أصبح يعتمد على الإيمان بيسوع، آدم الجديد المصلوب من أجل الخطيئة، والإله الذى بُعث منتصراً على الموت. إلا أن تأليهه ليسوع لم يثر غضب اليهود بالصورة التى أثارها استبعاده للتوراة وللختان» (les grandes dates du christianisme) .

ذلك هو مانطالعه فى أحد القواميس الرسمية الصادرة فى سلسلة من المراجع تحمل اسم: « الأساسيات»! أى أن هذه المعلومات تعد من الأساسيات التى يمكن الاعتماد عليها أو الحد الأدنى من المعلومات التى يكمن الاكتفاء بها. ثم يوضح كاتب هذا البحث فى نفس القاموس قائلا عن سبب غضب اليهود وعدائهم: « إن المسيح مصلوباً يمثل فضيحة بالنسبة لهم، كما أن الختان بالنسبة لهم يمثل العهد الذى أقامه الله عهدا أبديا، واستبعاده يعنى ابتعادهم عن العقيدة والدين المنزّل، لذلك تم القبض على بولس فى مدينة القدس. . . أما المعطيات الخاصة به والواردة فى « أعمال الرسل» وفى«رسائله» فهى متناقضة أحيانا لأن لوقا، الذى كتبها لم يتبعه فى كل تنقلاته . كما أنه عادة ما كان يستبعد المشاحنات والخلافات التى قامت بينه وبين الحواريين أو اليهود المسيحيين. ومع ذلك، ورغم عدم اليقين القائم، يعد بولس الشخصية الرئيسية للجيل الأول من المسيحيين ورسول الوثنيين»!!

وتمتد قائمة المراجع التى تدين تحريف بولس للعقيدة المسيحية الأصلية إلى عدد لا يتصوره المرء .

ونظرا لصعوبة الإشارة إليها أو إلى العديد منها، سنكتفى بآخر ماظهر بهذه القائمة، التى بدأت تدينه منذ القرون الأولى الميلادية، وإن تزايدت عناوينها فى هذا القرن. . وأحدث ما ظهر من هذه المراجع للباحث جيرالد ميساديبه، وهو بعنوان: «مُشعل الحريق، حياة شاؤل، الرسول» (١٩٩١م).

ويقول المؤلف فى المقدمة: « إن شاؤل الذى أصبح بولس فيما بعد، هو المخترع الأساسى للمسيحية وأول مشرّع لها. فمن المؤكد أنه بعد صلب يسوع، كان أتباعه يعتبرون أنفسهم كيهود أتباعا ليسوع، وإن شاؤل الدائم الاختلاف مع يعقوب وبطرس، قد نظم عملية انشقاق الجماعة المسيحية عن اليهودية والتوراة، ولولا هذه المهمة الضخمة التى رودت الإنسانية ـ زمنيا ـ بالديانة التوحيدية الثانية إذ أن الديانة التوحيدية الثالثة هى الإسلام، لما تغيّر مصير الغرب بهذا القدر. فهو الذى أرسى القواعد الأولى للديانة المسيحية الحالية، وهو الذى حول رمز الصليب من أداة تعذيب إلى رمز جديد، وهو الذى أبعد أتباع يسوع عن الشرع الموسوى، وهو أيضا الذى أغرق المسيحية فى التبتل وعداوة المرأة».

ومن أهم النقاط التى بدأ المؤلف فى بحثها وقعة «الطريق إلى دمشق» التى صارت مثلا، وتعنى تلك اللحظة التى« سمع فيها بولس صوت السيد المسيح وهو يؤنبه على اضطهاده للمسيحيين، فخر ساجداً، وآمن . . »، ويوضح الباحث أن هذه الوقعة لم ترد إلا فى نصوص « أعمال الرسل» و«الرسائل»، وهى نصوص تغص بالبيانات المتضاربة. .كما أنها مليئة بالغموض، والفجوات، والمتناقضات . . . التى تشكك فى شخص بولس. . فهو من ناحية معروف أنه يهودى، لكنه يؤكد قائلا: « لقد جعلت نفسى يهوديا مع اليهود »، ثم يقول: « لقد عشت بدون التوراة»، وهو اعتراف غير منطقى من شخص يزعم أنه« نشأ عند أقدام جماليل» أشهر علماء الشرع اليهودى، أى أنه تشرب اليهودية منذ شبابه، ثم نراه يقول فى مكان آخر « لقد صرت يهوديا أكثر فأكثر» أثناء اضطهاده لأتباع يسوع، ولانملك إلا أن نتساءل: هل كان يهوديا أم لا ؟ . . . أما أسطورة الطريق إلى دمشق «فأعمال الرسل» تختلف تماما عن « الرسائل» لقد عرضها لوقا فى إطار الانبهار الأسطورى؛ بينما تحدث عنها بولس فى رسائله مرتين متناقضتين تماما، ثم يزعم فيما بعد أنه رأى يسوع وأنه قد علمه مباشرة كل شىء عن تعاليم المسيحية . . . والأمر محيرّ إذ أن تلك اللحظات التى انبهر فيها بصوت يسوع ولم يره ـ لا يمكن أن يكون قد أطلعه فيها على شىء، وإلا لقاله فى نفس النص الذى يصف فيه ذلك الضوء. . . والتعارض بين «أعمال الرسل» و«الرسائل» يكمن، من

ناحية أخرى، فى أن الأولى تمثله، وكأنه قد تلقى المهمة من المجلس الرسولى فى القدس ليقوم بتبشير الوثنيين بعد أن حاول تبشير اليهود. أما فى« الرسائل» فيقدم بولس نفسه كرسول ـ وهو لقب لا تمنحه له نصوص «أعمال الرسل». . . ومن الواضح أن لوقا يحاول طمس الخلافات المريرة التى دبت بينه وبين الرسل الأوائل إلى درجة السب وتبادل الاتهامات وأنه يرمى إلى غايات دعائية بعينها تهدف إلى خلق صورة مثالية لمولد الكنيسة. . . »!

أما أكثر المسائل الغامضة فى نظر الباحث والتى تتضمن الكثير من الغموض فهى تعاليم بولس، التى يستبعد أنه قد استقاها من يسوع، بما أنه لم يعتنق المسيحية إلا بعد رجم إتيين فيما بين عام ٣٢ ـ ٣٤، أى من سنتين إلى أربع سنوات بعد صلب يسوع ومن المؤكد أنه لم يعتنقها من الأناجيل، فلم تكن قد كُتبت بعد، ولاحتى من لوقا إذ لم يلتق به إلا بعد خمسة عشر عاما من تنصيره، ولا يمكن القول بأنه اعتنقها من سماعه لخطب الحواريين بما أنه كان شديد العداء للمسيحية حتى وقعة «الطريق إلى دمشق » المزعومة.

بل إن الباحث يطرح قضية جد جديرة بالاهتمام إذ أنه يقول: « إذا ما أعلن بولس أنه التقى بيسوع لحما ودما فذلك أنه قد عاش لفترة طويلة بعد صلبه»، أى أنه كان إنساناً، الأمر الذى نستشفه من الأناجيل (باستثناء فقرة الصعود التى أضيفت فيما بعد إلى إنجيل مرقس) عندما تصف اللقاء الأخير للحواريين مع يسوع فى فلسطين؛ فإن كان يسوع إنسانا لسألوه ما الذى تقصه لنا عن ألوهيته وبعثه؟ لذلك ظل بولس حبيس سره ولم يفصح عنه لكى لا يفقده. الأمر الذى اضطره إلى التحايل طيلة الوقت. . . ولايسعنا إلا الجزم بأنه قد استولى على بضعة تعاليم وأقوال ليسوع ليعيد صياغة المسيحية وفقا لهواه. . .

«. . . ومن الغريب أن ينتحل بولس لنفسه فجأة صفة امتلاك الحقيقة. هو الذى لم ير يسوع إلا لمحة، يؤكد ببجاحة لا مثيل لها أنه وحده هو الذى يمتلك حقيقة تعاليم يسوع، وليس أولئك الذين عرفوه عن قرب، أى أوائل الحواريين. وتصل به الوقاحة إلى مداها عند اتهامه لبطرس باللؤم! والأمر المقلق، أو غير المنطقى، هو كيف يكون بولس آخر من انضم إلى الجماعة ويحاول الاستيلاء على إدارة الحركة المسيحية بل وأن يقوم بعزلها عن اليهودية بهذه الحيرة وبهذا العنف »؟

بل والأدهى من ذلك أن الباحث يصل إلى اتهام بولس بأنه كان حاضرا أيام محاكمة يسوع، وكان وقتها شديد العداء للمسيحية، ثم يتساءل إن لم يكن قد شارك

فى الحكم عليه ! لذلك يفترض احتمال لقائه بيسوع أثناء تلك المحاكمة التى كان يعمل فيها «كرجل بوليس » ضد المسيحيين . . ولا يسع المجال هنا لنقل وتلخيص كل ما بهذا البحث الموثق من معطيات، وإن كنا نكتفى بالإشارة إلى القضايا التى تناولها، ومنها: أنه يعد بولس من أوائل المحركين لمعاداة اليهودية التى مازالت قائمة حتى اليوم، والتى كان من نتيجتها مذبحة اليهود فى برشلونة عام ١٣٩١م، والخطاب البابوى لعام ١٤١١ الذى حرم على يهود أسبانيا دراسة التلمود، وألزم مائة وخمسين ألف يهودى على اعتناق المسيحية قهرا فى أسبانيا عام ١٤٩٢م وطرد الباقين ـ وهى عداوات رسمية استمرت حتى إعلان الملك خوان كارلوس أنه سيلغى هذا المرسوم فى العام المقبل ، أى فى ١٩٩٢م (البحث مكتوب عام ١٩٩١م).

ومما يثيره الباحث أيضا أن البراهين والأدلة التى يقدمها المفسرون الرسميون المسيحيون عاجزة عن تفسير التغيير الجذرى الذى حدث فى موقف بولس، فلا معرفته المزعومة عن حياة يسوع تسمح بذلك، ولا حماسه الإنجيلى الذى أوحى له به الروح القدس وفقا لأقوال التراث ـ يسمح بذلك. . وهنا يؤكد الباحث قائلا: « إن الروح القدس لا يمكنه أن يوحى فى اتجاهين مختلفين فى آن واحد: أن يحث بطرس ومجمع القدس على الحفاظ على المسيحية فى قلب التوراة، وأن يقوم فى نفس الوقت بحث بولس على تحريرها من التوراة، وإذا ما أراد القائمون على التراث أن نحترم الروح القدس فمن الأفضل إبعاده عن هذه المعركة»!!.

ثم ينتقل الباحث إلى ما طرحه الكاردينال جان دانييلو فى كتابه عن المصادر التى استقى منها بولس تعاليمه وهى: جماعة الدوزيتيين المقيمة فى كشبا. كما يشير إلى تناقض ما بشر به بولس وإصراره على عودة المسيح ونهاية الزمان بدرجة جعلت الناس تتصور أن نهاية العالم وشيكة الوقوع، وكيف أنه اضطر بعد ذلك إلى تهدئة إيقاع عباراته واستخدام ألفاظ منمقة لينبئهم بأن هذه النهاية ليست فورية وإنما فى زمن قريب. . « وبعد عشرين قرنا ثبت كذب نبوءة بولس، إذ لم تتحقق نهاية العالم»!!.

وآخر مايكشف عنه من أسرار، هو: تلك العلاقات الحميمة التى جمعت بين بولس وكل من تيموثى وأونيزيم اللذين أحبهما «وفقا للجسد» على حد قوله!!

وجيرالد ميساديه ليس أول من أثار هذه المسألة عن حياة بولس الشخصية، فهناك العديد من الباحثين الذين تعرضوا لها ومنهم الأب الطبيب مارك أوريزون. . ولا نتعرض لهذه النقطة إلا لارتباطها بحياة بولس الخاصة وزواجه من ابنة الحاخام ثم طلاقه لها ومهاجمته للزواج بعد ذلك.

أى أن موقفه سواء من ناحية الانحراف والعلاقات المثلية، أو من ناحية التبتل الذى تم فرضه على رجال اللاهوت فيما بعد مرتبط بحياة بولس الشخصية وليس بالتنزيل الإلهى. . .

ثم ينهى الباحث مقدمة كتابه مؤكدا على المتناقضات الزمانية التى تغص بها «أعمال الرسل» والتى تبرز بوضوح فى نظر أى باحث، مؤكدا على« أن لوقا كان يستبعد من المعلومات مالم يكن يؤدى إلى نفع للدعاية التى يقوم بها، ويقوم باستبعاد أو بالحجر على المعلومات الأخرى. . وأنها بالتالى نصوص مزيفة فى العديد من الأماكن»!

وبعد هذا العرض الشديد الإيجاز لما تغص به مراجع المتخصصين، وأكثرهم من رجال اللاهوت، لا يسعنا إلا أن نسأل نيافة البابا: كيف يقبل أن يكون ممثلا وخليفة لمثل هذه الشخصية ـ التى مازال الغموض يحيط بها وما زالت تستقطب العديد من الإدانات؟ بل كيف يمكن اعتبار مثل هذه الشخصية الدعامة الأساسية للكنيسة؟! وخاصة لتلك الكنيسة التى يحاول أن يفرضها على العالم قهرا؟!

المجامع:

سنتناول فى هذه النقطة المجامع المسكونية بخاصة؛ لأنها ملزمة لكافة الكنائس ويحضرها ممثلون من كل الأقطار، وترجع أهميتها إلى أنها هى التى نسج من خلالها المعالم الأساسية لتشكيل العقيدة المسيحية وفقا لمقتضيات المصالح السياسية والاجتماعية لتيار التعصب الكنسى وذلك إلى جانب تلك المجامع التى تم فيها استكمال صياغة العقيدة، مع الإشارة إلى أهم القرارات المتعلقة بتوضيح كيفية نسج معالم هذه المسيحية الجديدة أو التى تم تحريفها.

ويضفى التراث الكنسى أهمية خاصة على المجامع المسكونية المنعقدة فى القرون الأولى، وهى: مجمع نيقيا الأول، ومجمع القسطنطينية، ومجمع أفيزا، ومجمع خلقدونيا، لأنها أهم المجامع المسكونية السبعة الأولى التى تشكلت خلالها أهم المعالم الرئيسية التى مازال معظمها سائدا ـ وإن اختلفت الكنائس المنشقة على بعض جوانبها.

إلا أن الوقائع التاريخية تشير إلى أن عملية التحريف فى العقيدة المسيحية قد بدأت منذ المجمع الأول المنعقد فى القدس عام ٥١، برئاسة بطرس، حيث تم اعتماد القرارات التى اتخذها بولس، وهى: إلغاء« العهد الأبدى» الممثل فى الختان وإعفاء معتنقى المسيحية الجدد من هذا الفرض ومن الالتزام بالشرائع اليهودية. . ومن المعروف أن كليهما من الحواريين وليسا بأنبياء ولا يحق لهما شرعا المساس بالعقيدة أو. . بالرسالة

السماوية التى نادى بها السيد المسيح (HISTOIRE Du VATICAN).

مجمع نيقيا الأول (٣٢٥م):

يعد من أهم المجامع إذ تم خلاله تأليه السيد المسيح وجعله مساويا لله عز وجل، كما تمت صياغة عقيدة الإيمان بالصورة التى هى عليها الآن، مع تحديد تاريخ عيد الفصح وفقا للتقويم الرومانى. الأمر الذى يؤكد أنها عقيدة غير منزلة، وقد تم الاقتراع عليها فى مجمع حضره ٢٠٤٨ قساً بمختلف رتبهم الكهنوتية، إلا أنه لم يوقع بالموافقة على هذا القرار سوى ٣١٨ شخصا هم القائلون بالتثليث وبألوهية المسيح (عبد الأحد داود: الإنجيل والصليب). .

كما قام نفس هذا المجمع بفرز الأناجيل واختيار تلك التى يطلق عليها تعبير «الأناجيل المعتمدة» أو« الرسمية »،واستبعاد أو إبادة الأناجيل الكاشفة لهذا التلاعب أو التى تتناقض معه، بأن أطلقوا عليها عبارة« أبوكروفوس» اليونانية، التى ترجموها بعبارة «خطأ»، ومن المؤسف ملاحظة أنه حتى هذا المسمى المستخدم يكشف عن عملية التلاعب فى حد ذاتها. فالرجوع إلى أى قاموس لغوى يونانى يوضح أن كلمة «أبوكروفس»(APOKRUPHOS) تعنى« سرى» وليس «خطأ»!وإطلاق عبارة «سرى» على أية وثيقة تعنى أنه من المفروض عدم الاطلاع عليها!

كما تم فرض الاحتفال بعيد الفصح على كافة الكنائس يوم الأحد بدلا عن يوم السبت.

مجمع القسطنطينية الأول(٣٨١):

قرر رجال اللاهوت خلال هذا المجمع تأليه الروح القدس وجعله مساويا لله وللسيد المسيح، إلى جانب إدانة أيه اعتراضات تحت مسمى «الهرطقة» وأقروا استقلال الأساقفة عن السلطة السياسية مع إضفاء الأولوية لأساقفة روما والقسطنطينية.

مجمع أفسوس(٤٣١):

قام بإقرار صفة الأمومة الإلهية للسيدة العذراء، بما أنها والدة من تم تأليهه فى مجمع نيقيا الأول، منذ قرابة قرن مضى من هذا المجمع .

مجمع خلقدونيا(٤٥١):

أدينت خلاله الكنائس الشرقية لاختلافها حول تحديد طبيعة السيد المسيح، وتم استبعاد كنيسة الإسكندرية تماما لاعتراضها ـ بخلاف ذلك ـ على السيادة المضفاة على كنيسة بيزنطة.

مجمع القسطنطينية الثانى(٥٥٣):

اجتمع لإدانة النستوريين القائلين بطبيعتين للسيد المسيح، ولإعادة إقرار المجامع السابقة الخاصة بتحديد العقيدة، و« للعن وطرد القائلين بأن السيد المسيح لم يكن حقيقة بل خيالا»! وهو قول يمكن تقريبه من أبحاث القائلين بأن هناك تشابها بين حياة « سيد العدالة» رئيس الأسينيين، وبين يسوع الذى نشأ بينهم.

مجمع القسطنطينية (٦٨٠):

انعقد لإدانة المنادين بطبيعة إلهية واحدة للسيد المسيح، وأنه لا توجد لديه سوى إرادة واحدة هى الإرادة الإلهية، وليقرر آن له طبيعتين وإرادتين.

مجمع نيقيا الثانى (٧٨٧):

اجتمع لحسم معركة الأيقونات وإباحة شرعيتها واعتبارها بمثابة« إنجيل للأميين»، ومن المعروف أن معظم وثائق هذا المجمع قد تم حرقها آنذاك، ومايعرف عنه يستشف من أصدائه فى كتابات الآخرين، والتى يدرك منها أن السبب الحقيقى لإعدام هذه الوثائق هو انتشار الإسلام ومطالبة المجمع بمحاربته بشتى الوسائل.

مجمع القسطنطينية(٨٦٩):

اجتمع لإدانة البطريرك فوسيوس لاعتراضه على تأليه الروح القدس وجعله مساويا لله وللسيد المسيح، ولإدانة كتابه المعنون:«سر آسطورة الروح القدس».وإقرار أن المسيحيين فى جميع بلاد العالم يخضعون لقرارات رئيس كنيسة روما!

ومما تقدم نرى أن الخلافات حول إقرار شكل العقيدة ظل قائما حتى أواخر القرن التاسع ـ وذلك من خلال المجامع المسكونية الأولى المعترف بها ـ وإن كان هذا الخلاف قد استمر وتفاقم فى تشعباته حتى يومنا هذا، وبعد انتقال السلطة إلى البابا واستبعاد النفوذ الإمبراطورى عن الكنيسة تظل عملية الصراع على السلطة مستمرة، وتظل عملية نسج العقيدة أو مترتباتها تتم بنفس الكيفية وأهم المجامع التالية هى:

مجمع لاتران الأول(١١٢٣):

إقرار معاهده مدينة وورمس الخاصة بمنح البابا مزيد من السلطات، وقيامه بتعيين الأساقفة نيابة عن إمبراطور ألمانيا ـ وهى المعركة المعروفة باسم « معركة التعيين».

مجمع لاتران الثالث(١١٧٩):

انعقد لتقنين عملية انتخاب البابا، وحسم الخلاف القائم بين البابا وفريدريك

بربا روس إمبراطور ألمانيا، ولإدانة مذهب « الكاتار» أو «التطهر» الذى قام ضد تطرفات رجال الكهنوت الكاثوليكى وقد أمر البابا إنيوسنت بشن حرب صليبية لإبادتهم بعد انتشار عقيدتهم فى كل أوربا، كما أقيمت ضدهم محاكم التفتيش عام ١٢٢٩م فى مقاطعة لانجدوق بجنوب غرب فرنسا آنذاك لاستئصال ماتبقى منهم.

ويوضح جوليان دييس فى كتابه عن « المسيحيون بين الديانات» كيف « أن عقيدة الكاتار تتضمن توريطات عقائدية واجتماعية ودينية تمثل انقلابا تاما للمجتمع المسيحى وتمثل نهاية الكنيسة الكاثوليكية»!

مجمع لاتران الرابع (١٢١٥):

انعقد لمواصلة محاربة المذاهب المنشقة الرافضة للتحريف، ولتحديد معنى القربان، وتحول خبز القربان وخمره إلى جسد المسيح ودمه . . إلى جانب فرض مبدأ« الاعتراف دوريا»و« المناولة» سنويا ـ كنوع من الرقابة والسيطرة على الأفراد وإخضاعهم للعقيدة المستحدثة.

مجمع ليون الثانى(١٢٧٤):

انعقد للمطالبة بمواصلة الحروب الصليبية، وبذل محاولة جادة للوحدة مع الكنيسة اليونانية.

مجمع كونستانس (١٤١٤):

انعقد لحسم الانقسام الكبير الذى كان يجتاح الغرب، وأقيل فيه بابا روما وآخرون لتورطهم فى مسألة صكوك الغفران، ولإدانة جون هاس الذى كان يعارض فكرة صكوك الغفران، ويدين إشعال الكنيسة للحروب. وقد تم حرقه حياً.

مجمع ترانط (١٥٤٥) :

انعقد للبت فى المسائل العقائدية فى فترة مواكبة لأعنف الانقسامات الكنسية، وتمت مناقشة الكتاب المقدس، والتراث ، والخطيئة الأولى، والعدالة، وإضافة تعريف جديد لفكرة التضحية والفداء لموت يسوع، والمناولة، والأسرار، وعبادة القديسين، وتبجيل الصور والأيقونات ـ وكان البروتستانت قد قاموا بتحريمها ثانية، وانتهى بإقرار الصورة الحالية للأناجيل وفرضها والتمسك بعدم المساس بها، وإقرار بقية بنود العقيدة والطقوس بالشكل الذى تمت صياغته فى هذا المجمع ـ أى أنها كانت مجال خلاف حتى منتصف القرن السادس عشر!

مجمع الفاتيكان المسكونى الأول (١٨٦٩).

انعقد لمواجهة العصر الحديث وعلومه (الكاشفة لتجاوزات الأناجيل ومصداقيتها) والعقلانية، والاكتشافات العلمية والجيولوجية والأنثروبولوجية التى تقطع - هى أيضا - بعدم مصداقية الأناجيل من الناحية التاريخية أو العلمية كما أكد هذا المجمع سيادة البابا على كل شيء، وأنه معصوم من الخطأ ! الأمر الذى أدى إلى انقسامات وخلافات جديدة بين الكنائس.

مجمع الفاتيكان المسكونى الثانى (٩٦٢ - ١٩٦٥):

يتسم هذا المجمع بوقعة تعد الأولى من نوعها فى كافة المجامع: فإذا ماكانت المجامع السابقة المسكونية منها أم العادية، تعقد للدفاع عن قضية بعينها أو لاختلاق الأحاييل اللازمة لها، أو إن أمكن القول بأنها كانت مجامع دفاعية عن كيانها، وعن تعصب القائمين على هذا التطرف الدينى، فإن المجمع الفاتيكانى المسكونى الثانى كان أول مجمع فى التاريخ يتخذ خطاً هجومياً على كافة المستويات، واتخاذه قرارات لا سابقة لها فى التاريخ تتلخص أهمها فى :

- فرض العقيدة الكاثوليكية على العالم أجمع.

- الإجهاز على النظام الشيوعى بزعم إلحاده، وإن كانت حقيقة الأمر لغير ذلك - كما سوف نرى فيما بعد.

- تبرئة اليهود من دم المسيح رغم كل النصوص، ورغم كل أقوال السيد المسيح التى تدين ذلك .

- الإجهاز على الإسلام والمسلمين تحت ستار إقرار مبدأ الحوار مع الديانات غير المسيحية (thomas.j le concile vatican *II*)- الأمر الذى سوف نتناوله بالتفصيل فيما بعد.

ويعد هذا المجمع نقطة الارتكاز التى انطلق منها البابا يوحنا بولس الثانى لتنفيذ قراراته بعد أن سادها التعتيم لفترة طويلة، إلا أنه أضحى يعلنها صراحة وبلا مواربة،وإن كان اعتمد على اللعب بالألفاظ والتحايل فى العبارات وانتحال مبدأ الكيل بمكيالين والقياس بمقياسين - الأمر الذى سنتناوله فى النقاط التالية.

كما قام هذا المجمع بمناقشة القضايا التالية والبت فيها:

- مفهوم الله والإنسان المسيحى الحالى.

- البنية الداخلية للكنيسة وبخاصة دور البابا الرئاسى المتسلط فيها وعليها.

ـ الأحداث السياسية لهذا العصر.

ـ التوترات القائمة فى قلب الفاتيكان.

ـ تكوين القساوسة ووحدة رجال اللاهوت.

ـ الاستعانة بالعلمانيين كأدوات استشعار لرجال الكهنوت وكمبشرين .

ـ دور السيدة العذراء فى الكنيسة.

ـ النشاط التبشيرى لغير المسيحيين.

وإن ظل أخطر قراراته هو: تنصير العالم! لذلك قام بإنشاء ما يسمى بالسينودس ، أى « المجلس الدائم لأساقفة الكنيسة العالمية الذى تتلخص مهمته فى إعلام وإرشاد مقر العمليات العالمى الخاضع للبابا».

أما عبارة تحديث الكنيسة :«aggiormamento » التى ابتدعها المجمع، فتعنى إعادة صياغة العقيدة بكل مابها من لامعقول، وتقديمها بعبارات ومفاهيم يقبلها العصر الحديث أو تتمشى مع عقليته !! أى أن الكنيسة تناقض موقفها السابق من العصر الحديث وبدأت تتحايل لتتمشى معه!

ومن أهم قراراته إنشاء « السينودس» أى« مجلس الأساقفة الدائم من أجل إقامة الكنيسة العالمية»، ومن مهامه أيضا تنفيذ خطط التجديدات البعيدة المدى بالنسبة للمستقبل والتابعة للمؤسسة الكنسية ، وهو بمثابة لجنة إدارة دولية لشؤون المجمع بصفة عامة، والعمل على تنفيذ مخطط تنصير العالم بصفة خاصة، أى أن كل ما يتخذ من خطوات يتواكب من أجل تنفيذ مخطط تنصير العالم!!

الكاثوليكية:

لقد أوضحنا خلال العرض الموجز للنقاط السابقة، التى تعد من الأركان الأساسية للمسيحية ـ كالعقيدة ونشأتها وتحريفها والأطر المحيطة بها، ومؤسسيها ـ كيف أن المسيحية الحالية ليست بالقطع تلك التى نادى بها السيد المسيح التى تتلخص أساسا فى «موعظة الجبل». . كما أوضحنا بالوقائع التاريخية والوثائق وبآيات الإنجيل الحالى كيف قام بولس الرسول بتحريفها وإبعادها عن أصولها؟ وكيف تم نسج هذا الخط الجديد عبر المجامع والخطب الرسولية؟ . بحيث تحولت المسيحية من ديانة توحيدية إلى ديانة تعتمد على شخص محورى أساسى هو السيد المسيح بعد مساواته بالله وبالروح القدس. . بينما هو فى الأصل وفى الواقع، من خلال أقواله وأقوال الحواريين الذين عاصروه، والناس الذين شاهدوه واستمعوا إليه، أنه « نبى من الأنبياء» و«رسول مرسل برسالة» بعينها،

وهو ما أتى به القرآن من حقيقة منزلة تجب أى تحريف سابق أو لاحق. .

وبعد قرابة ألفى عام من العمليات المتناوبة ما بين التحريف وكشفه، وبعد كل ماتم إنجازه من تقدم فى العلوم الإنسانية واللغوية والتاريخية والأثرية، وكل ما تم كشفه من وثائق ومخطوطات أصبح من الصعب على التيار المتعصب فى الكنيسة أن يواصل التمسك بموقف قائم على التحريف والتزييف المفضوح . . ذلك لأن الأمر لم يعد مثلما وصفه البابا بيوس العاشر فى خطابه عام ١٩٠٦م، حين كتب يقول: « إن الكنيسة مجتمع غير متساوٍ إنها تتضمن فئتان من الأشخاص: الرعاة والقطيع. والسلطة الطبقية وحدها ـ أى الرعاة ـ هى التى يحق لها أن تحرك وتقود . . أما العامة ـ أى القطيع ـ فمن واجبهم أن يتألموا، وأن يُقادوا ويتّبعوا بخضوع أوامر الذين يقودونهم».

والنص الرسولى ليس بحاجة إلى تعليق، فوجهة النظر البابوية لسلطتها ونفوذها الطبقى المتسلط ورأيها فى«القطيع»الذى تقوده قهرا غنى عن أى تفسير، وهنا لا يسعنا إلا أن نورد تعريف الكاثوليكية مثلما هو وارد فى كتاب عن«الكنيسة وتطورها» بقلم أنطوان كازانوفا: « إن المفاهيم والموضوعات الدالة على العقيدة الكاثوليكية ليست وليدة الصدفة. إذ أن علاقاتها الداخلية هى ثمرة تاريخ طويل، ومجهود ممتد، قام به كبار رجال الكهنوت، منذ بداية القرن الثانى بعد وفاة يسوع المسيح، للتعبير عن وجهة نظرهم أو رؤتيهم لله وللعالم، فى مجموعة من التحايلات النسقية القادرة على التعبير عن انتمائها الشعبى مع تعليم عناصرها ـ وفقا للمخطط الإلهى الذى صاغته الطبقة الدينية الحاكمة ـ لإضفاء قيمة على الثورة التى قامت بها فى الأرض أو فى بنياتها الكنسية. وذلك عبر مؤسساتها الكامنة فى المنظمات الخاضعة لإدارة الكنيسة». .

ثم يواصل الباحث إنطوان كازانوفا قائلا عما تم فى مجمع الفاتيكان المسكونى الثانى: وهكذا، فقد جاهدوا ليؤسسوا ـ بناء على النصوص الإنجيلية والتراث ـ معايير ومبادئ جديدة، تكون أكثر فعالية بالنسبة للوقائع الاجتماعية التى تفتحت منذ قرن وذلك فى الغالب الأعم فى تناقض دائم مع تعاليم البابوات السابقين، وفى تناقض مع مجمع ترانط أو مجمع الفاتيكان المسكونى الأول، وقد كانت مهمتهم فى غاية الحرج، فالأناجيل والتراث، حتى وإن عُبث بها، لا يمكنها أن تقدم دوما سنداً ولو ظاهرياً لمحاولاتهم الجديدة. وعادة مايحدث ألا تستطيع النصوص الإنجيلية القيام بالدور التقليدى للدلالات التى فى خدمة المدلولات الناجمة عن الواقع المعاصر، كما تعجزعن القيام بهذا الدور على حساب استجداءات أصبحت مفهومة وواضحة. . ولم يتم هذا

الجهد بلا صراعات كهنوتية واجتماعية، فالمجمع قد شهد معارك طاحنة حول النصوص الإنجيلية، وقد شاهدها من قبله تاريخ المسيحية بأسره، وهىَ صراعات ناجمة عن انتقاء وإعادة صياغة أى معنى أساسى لتبرير ما تم تجميعه»!!

بل لقد أوضح الأسقف جارون، فى نفس ذلك المجمع، كيف أن العقيدة لم تعد مقنعة بالنسبة للمسيحيين المعاصرين.. بينما لاحظ أسقف مدينة متز قائلا: « لأول مرة تقيم الكنيسة مجمعا فى جو من الإلحاد النظرى والعملى، فالعالم أصبح يتطور ويحيا بلا مساعدة الكنيسة، بل وفى تعارض معها»..

وتشير هذه الاستشهادات إلى حقيقة ماصارت إليه المسيحية فى وضعها الراهن . وهذا الوضع يمثل بالفعل إحدى الأزمات الأساسية التى تواجه البابا فلم يجد خلالها سوى منح المزيد من السلطات القمعية للأساقفة لكى يتصدوا لها ..

ولا يسع المجال هنا لعرض كل ما صدر من اعتراضات أوإدانات عن بعض رجال اللاهوت بمختلف فئاتهم ودرجاتهم، أو كل ماصدر عن العلماء والباحثين، وإنما نكتفى بالإشارة إلى أن واقع المسيحية الراهنة لا يمكن أن يتمشى مع فكرة « الخلود» التى يصر البابا على مواصلة فرضها، متمشيا فى ذلك مع من سبقوه من بابوات. فلقد كررها عشرات المرات فى خطابه الآخير، مع تكرار أنها « منزلة» « وأبدية» و«صالحة لكل زمان ومكان»؛ كما لايمكن أن تستقيم مع محاولة فرضها على أنها « خاتمة الرسالة التوحيدية»، وبالتالى يبرر مواصلة عدم الاعتراف بالإسلام واستبعاده من أنه هو المتمم الحقيقى للرسالة التوحيدية ومحاولة اقتلاعه بإيقاع محموم حتى يتسنى تنفيذ المخطط الرامى إلى تنصير العالم تحت لواء كاثوليكية روما فى مطلع الألفية الثالثة!!

المجمع المسكونى الفاتيكانى الثانى والأزمة:

أشرنا فى موضع سابق إلى الأسباب التى دعت لانعقاد هذا المجمع الذى يعتبره العديد من المعلقين أنه آول مجمع« هجومى» للدفاع عن النفس، و« النفس» هنا تعنى كل الكيان الكنسى الطبقى بكل مايتضمنه من سلطة ونفوذ، وقد انعقد بسبب التوترات الناجمة عن تصدعات آلمت بهذا الكيان، وأصبح لزاما على المتسلطين عليه أن يبادروا برأبها قبل انهياره. . وهى توترات ناجمة عن المتطلبات الدينية للجماهير (فى الغرب المسيحى)ومتطلبات الفئات الطبقية الكنسية؛ كما آنها توترات ناجمة عن الأنماط المختلفة بل والمتناقضة القائمة بين أعضاء هذا البنيان من جهة، وعن الوسائل التى يواجهون بها الوقائع المعاصرة.. آو بقول أبسط آنها توترات خارجية وداخلية. خارجية ناجمة عن علاقة الكنيسة بالمجتمع؛ وداخلية فى الكيان الكنسى نفسه وفى علاقة أفراده بالمجتمع.

إن أهم المتغيرات التى سادت فى المجتمع العالمى فى القرن العشرين هى انتشار

الشيوعية والاشتراكية أو الفكر اليسارى (اختصارا) بكل مانجم عنه من تغيير فى المجال الاقتصادى والسياسى، وخاصة فى علاقة الطبقة العاملة بأصحاب رؤوس الأموال ورجال الدين، وفى مفهوم حق الملكية الفردية وملكية وسائل الإنتاج. ففى القرن الماضى لم تكن المتغيرات فى نسق القوى الإنتاجية وعلاقات الإنتاج من الضخامة حتى تفرض نفسها على الفكر الكنسى. فحتى منتصف القرن التاسع عشر تقريبا لم تكن مشاكل الوضع العمالى ملحوظة من رجال اللاهوت ـ الذين كانت كل اهتماماتهم منصبة فى الصراع ضد نتائج الثورة الفرنسية وأهمها مايتعلق بمآسى الطبقة العاملة، وحقوق الإنسان من جهة، واستبداد الكنيسة من جهة أخرى.

أما فى القرن العشرين، فإن انتشار المصادر العلمية والتقنية قد تضافر مع التعديلات الجذرية للعلاقات الاجتماعية ليزيد من التوترات القائمة فى المؤسسة الدينية الكاثوليكية كما انتشر الشك فى مصداقية أو شرعية المبدأ الطبيعى للملكية الفردية بما فى ذلك وسائل الإنتاج فقد تكشف مع الوقت أن نظام الملكية الفردية له مضاره القاطعة بوصوله إلى مستوى الاحتكار، فهو مسؤول عن حربين عالميتين ومحن النازية، وعن الحروب الاستعمارية. . كما أنه من الأسباب الرئيسية لتخلف البلدان الخاضعة له، وعن البطالة والأجور المنخفضة والجهل الثقافى.

ومن ناحية أخرى، لم تعد طبقة العمال والفلاحين تتقبل غموض الطقوس الدينية والخطاب الكنسى، خاصة فى لغة غريبة عنها (اللاتينية)، وذلك إلى جانب إحساسها بأنه أصبح فى مقدورها أن تصيغ مستقبلها ومصيرها، وأن تتحرر من غيبيات أو إبهامات النفوذ الكنسى.

وقد لخص البابا بولس السادس الموقف فى خطبة عيد الميلاد لعام ١٩٦٧م قائلا: «إن إنكار الله بدأ يتحول من المستوى النظرى إلى مستوى التصرفات العملية؛ من مجرد نظرية قاصرة على نطاق ضيق من العلماء، بدأت تتحول إلى أسطورة الجماهير. إن الإلحاد العقلانى الذى كان بمثابة مدرسة فلسفية صار يتبعه الإلحاد المادى والاجتماعى».

أما فى بيان «الكنيسة فى عالم اليوم» الصادر عن المجمع المسكونى الفاتيكانى الثانى فينص على «أن العديد من الجماعات المتزايدة أصبحت تبتعد عن الدين» بل إن الفكر الملحد بدأ يتوغل فى نفوس علماء اللاهوت والقساوسة، حتى إن عددا لايستهان به من الكاثوليك أصبح يرى أنه يمكن قبول النظام الشيوعى فى حدود الحياة الاقتصادية دون أن يؤدى بهم ذلك إلى الإلحاد.

لذلك نرى بعض علماء اللاهوت يطالبون الكنيسة بأن تأتى بحلول للقيم الأخلاقية

للإلحاد الثورى ومطالب العمال فى صراعهم من أجل الاشتراكية. ويشير أنطوان كازانوفا إلى الحركات التى اندلعت فى أمريكا اللاتينية ـ حيث يدور الصراع على أشده بين البروتستانتية والشيوعية من جهة والكاثوليكية من جهة أخرى ـ وراحت تتهم الكنيسة بأنها متواطئة مع الغرب الرأسمالى وحضارة الطغاة، كما بدؤوا يدينون فكرة الكاثوليكية العالمية».

وفى مجلة «نوڤيل كريتيك» الصادرة فى يناير ١٩٦٥م، نطالع خطابا من «مجموعة رهبان عمال إلى آباء المجمع المسكونى الفاتيكانى الثانى، يمسون فيه جوهر القضية قائلين: « المهم هو أن تكف الكنيسة عن إدارة العالم وأن تضع نفسها فى خدمته»!

وإذا ماكانت الأزمة برمتها أزمة حضارية إلا أنها فى واقع الأمر أزمة سياسية / دينية/ اقتصادية، تدور رحاها بين قلة مسيطرة محركة لكافة خيوط اللعبة، صراعا على السلطة، وبين أغلبية مقهورة تعانى من اعتصارها وتسعى للتخلص من تلك القبضة العاتية..

فالمسيحية منذ نشأتها تتصارع للسيطرة على السلطة، كما تتعرض للتناقض القائم فى المجتمع بين السادة والعبيد ـ ذلك التناقض الذى انتقلت صورته فى العصر الحديث فى الفارق الشاسع بين حفنة ملاك أثرياء وعمال مطحونين.. وما أكثر المراجع التى تشير إلى أن أغلبية رجال الدين مرتبطين بالرأسمالية وبالبنية السلطوية للكنيسة بل إن البابا يوحنا بولس الثانى سيقر بذلك فى آحد أحاديثه .

الأمر الذى يفسر تضافر جهود تيار التعصب الرأسمالى الإمبريالى مع التعصب الكنسى الإمبريالى لضرب اليسار، واقتلاعه من الساحة حتى لا يكون هناك أى بديل عن النظام السياسى/ الإقتصادى العالمى الواحد ! أى أن التحالف الحالى بين السلطة السياسية والسلطة الدينية هو تحالف وقتى من أجل المصلحة المشتركة ثم يعود الصراع بينهما إلى شراسته المعروفة على مر القرون..

وقد تحايل المجمع وتلاعب بالكثير من النصوص الإنجيلية بغية إضفاء سمة دينية شرعية على مخطط اقتلاع الفكر اليسارى وهدم الاتحاد السوفيتى؛ مما أدى إلى العديد من الانقسامات الكنسية، كان أعنفها موقف الأسقف مارسيل لوفيفر الذى صاغ اعتراضه فى كتاب معنون: « أتهم المجمع» ! وراح يوضح كيف خرجت الكنيسة الكاثوليكية عن أصولها وتراثها وتعاليمها بتآمر الكرادلة من أجل تحقيق مخططها هذا حتى أصبح هناك ما يطلق عليه « كنيسة مابعد المجمع» أو « الكنيسة المجمعية» والأسقف لوفيفر من رجال اللاهوت الأصوليين الشديدى التمسك بالأصولية المسيحية، أى بكل ما

أجرى فيها من تعديل وتبديل. إلا أن انتقاداته تكشف عن حقيقة الموقف الكنسى، وكل مايحتوى عليه من صراعات وانقسامات.

ولا يسع المجال هنا لعرض كل ما أثاره فى كتابه من انتقادات وإدانات للمجمع وإنما سنشير إلى أهم المحاور، ومنها :

- علاقة الأساقفة بالبابا وبالإرساليات.
- معصومية البابا.
- كهنوت القساوسة وأتباع الكنيسة.
- الزواج وتحديد النسل.
- حرية الثقافة وحرية العقيدة.
- توحيد الكنائس والعلاقات مع الديانات غير المسيحية ومع الملحدين.

وأكثر ما يثير غضب الأسقف لوفيفر هو ذلك الغموض الذى ساد المجمع منذ أولى جلساته واكتشافه أن الإعداد لهذه «المؤامرة» - كما وصفها فى الصفحة الأولى من كتابه - قد بدأ منذ فترة بعيدة . . مما دفعه إلى أن يتساءل: « ماهو دور البابا فى كل ذلك؟ وماهى مسؤوليته ؟ فى واقع الأمر أنها تبدو محبطة على الرغم من محاولة تبرئته من خيانته البشعة للكنيسة»!

وتتلخص هذه« الخيانة البشعة » فى أنها تمثل « أكبر وأخطر مأساة تعرضت لها الكنيسة» فبعد عام من انعقاد هذا المجمع« اهتز إيمان العديد من الأتباع لدرجة أصابت الكاردينال أوتافيانى بالهلع، وطلب من كافة أساقفة العالم ومن رؤساء الدرجات الدينية واللجان الإجابة على استطلاع رأى حول المخاطر التى تتعرض لها بعض الحقائق الأساسية فى العقيدة» ! وتكمن هذه « المأساة » - فى نظر لوفيفر - فى « أن الكنيسة قد اعتنقت الأفكار الليبرالية».

وعلى الرغم من إدراكه تماما أن هذا الاعتناق الليبرالى قد تم لتحقيق مآربها السياسية واستصدار أهم وأخطر ثلاثة قرارات تمخض عنها المجمع - وهى تنصير العالم، وضرب المعسكر اليسارى، وضرب الإسلام، وذلك من خلال الحوار الممتد وتوحيد الكنائس - إلا أن من أكثر ما أثار غضبه هو عملية توحيد الكنائس، وتناسى الخلافات العقائدية الجذرية بين الكاثوليكية والبروتستانتية والأورثوزكسية، قائلا: « إننا رعاة، ونعرف تماما أننا لا نتحدث بنفس اللغة مع رجال اللاهوت ومع غير المؤهلين؛ وكذلك لا نتحدث بنفس الطريقة مع القساوسة ومع العلمانيين، فكيف يمكن إذن تعريف عقيدتنا

بحيث لاتؤدى إلى الأخطاء السائدة فى يومنا هذا، وأن تكون الحقيقة ـ فى نفس هذا النص ـ مفهومة من أشخاص غير مختصين فى علم اللاهوت»؟ بل لقد انتقد حتى التسمية الجديدة التى أطلقت على أتباع العقائد المسيحية غير الكاثوليكية: فبعد أن كانوا يعرفون باسم« المنشقين» أو« الهراطقة» أطلق عليهم المجمع اسم «الأخوة المتفرقون».

ثم يستطرد موضحا وجهة نظره واعتراضه على توحيد الكنائس، قائلا: «إذا كانت العقيدة المقترحة فى بيان المجمع حقيقية، فذلك يعنى أن الكنيسة الكاثوليكية قد عاشت فى تناقض مباشر مع الشرائع السماوية؛ وسينجم عن ذلك أن مؤسساتها العليا المعصومة من الخطأ كانت على خطأ لمدة قرون طويلة بما أنها قد قامت بتعليم مايتعارض مع الشرائع السماوية وتصرفت ضدها، ومن هنا فسيكون الأرثوذكس وبعض البروتستانت على حق فى هجومهم على البابا» بل إنه يرى فى عملية إجراء الحوار مع الكنائس الأخرى أنها « علاقة زنا» و« وحدة فى الخلط والسفاح» (وارد فى كتاب: الملف الكامل للأسقف لوفيفر).

ويزيد جاك دوكين من توضيح سبب احتقارهم للأرثوذكس وإكليروسه قائلا: «لأنهم يتزوجون ويصبحون بذلك إكليروسا من الدرجة الثانية، ضعفاء وشديدى الجهل كالفلاحين، وأكبر دليل على ذلك أن الأتباع «المتطورين» يحتقرونهم رغم حماسهم الدينى الجدير بالاحترام » (غدا ، كنيسة بلا قساوسة) .

إلا أن أهم الأزمات الناجمة عن ذلك المجمع تكمن فى ثلاثة محاور هى:

١ـ ادعاء العالمية ومحاولة تنصير العالم مع إدانة الثورة الاشتراكية والتشدق بتحسين إصلاحى فى المجتمع الرأسمالى.

٢ ـ الإلحاد الذى تفشى، وتكمن أسبابه فى ثلاث نقاط أساسية هى: الماركسية اللينينية وشكلها العلمى الممثل فى المادية الجدلية، وما أطلق عليه الأب لورنتان عبارة: «النزف الصامت الجماعى لمسيحيين يبتعدون عن الكنيسة»، وانتقال الفكر الملحد بشكل متزايد إلى نفس رجال اللاهوت الذين اهتز يقينهم أمام نظرية «وفاة الله» وصعوبة تفسير النصوص الإنجيلية والعقائد التراثية. الأمر الذى أوضحه البابا بولس السادس فى إحدى خطبه.

٣ ـ التعصب الكاثوليكى الشديد وادعاء أن الكنيسة الكاثوليكية وحدها هى «المختارة من الله»، والمنزّلة، وهى وحدها الصالحة والتى يحق لها تفسير النصوص وتحديد الإرادة الإلهية وفرض عقيدتها على الكافة.

ونخرج من ذلك العرض الشديد الإيجاز لبعض ملامح المجمع الفاتيكانى المسكونى الثانى بأنه على الرغم من صفته «الهجومية» وكل ما اتخذه من قرارات لتنفيذ مقولة الدين العالمى الواحد المواكبة لسياسة النظام العالمى الواحد - حتى وإن كان ذلك على حساب المزيد من ليّ النصوص وتحريفها، فإن نفس هذا المجمع - وبسبب نفس هذه القرارات - قد أدى إلى خلق أزمة أخرى ثلاثية الأبعاد:

وهذه الأزمة تمثل الطامة الكبرى للكنيسة الكاثوليكية، إذ أنها تكشف عن تصدعات داخلية وصراعات تفوق التصور، بل ولا يعد من المبالغة تعليق كثير من الباحثين القائلين بأنها «ستأتى عليها» إن لم تتدارك الموقف، وذلك لأنها أزمة تتعلق بالعقيدة نفسها، وبالكيان الكنسى برمته، وبالمجتمع الذى آفلت زمامه من قبضتها.. بل إن هناك العديد من رجال الدين ومن المفكرين الذين يطالبونه بالاعتراف بالديانات الأخرى واعتبارها هى أيضا تمثل طريقا للوصول إلى الله.. إلا أن نيافة البابا يصم أذنيه عن ذلك ويعتبرها من المطالب التى تهدد الكيان الكنسى!

ويعلق الأب سباستيان طرومب الأستاذ الجامعى ومستشار لجنة عقيدة الإيمان وسكرتير اللجنة اللاهوتية للمجمع - قائلا: «إن الأزمة التى تجتازها الكنيسة أكثر خطرا من أزمة الحداثة ومن أزمة الإصلاح البروتستانتى». أما الكاردينال أوتاڤيانى رئيس لجنة عقيدة الإيمان - فيقول مؤكدا ذلك فى حديث له(نشر بمجلة پارى ماتش ١٧/١٢/١٩٦٨م): «إننا نجتاز مراحل جد عصيبة. فهناك أزمة عقائدية وأزمة فى الانضباط والطاعة. وخاصة هناك لدى الكثيرين رفض مأساوى لرئاسة البابا... إن الأزمة الأكثر شبها بالأزمة الحالية هى أزمة الحداثة فى مطلع القرن. إذ أنها كانت تهاجم جوهر العقيدة نفسها بحجة تأقلم اللغة اللاهوتية والظروف العصرية. إلا أن الأزمة الحالية لأكثر عنفا».

أما هانز كونج، الذى يعد واحدا من ألمع علماء اللاهوت الكاثوليكى فيعلق على هذه الأزمة قائلا: «إنها أول مرة يدان فيها البابا بمثل هذه الصراحة. إننا نشهد عملية إزالة الخداع عن البابوية. إن البابا لم يعد معبودا من المعبودات واعتباره آدميا لا يحرمه من الاحترام الواجب له. غير أن كافة رجال اللاهوت فى العالم لما استطاعوا أن يحققوا فى مثل هذا الوقت القياسى ما فعله بولس السادس بخطابه. إذ أنه حطم السلطة المطلقة للبابوية وأصبح من المباح أن نناقش بصراحة معصومية البابا من الخطأ».

وإذا ما استعرضنا أهم العناصر التى تناولها روبير سرّو - الكاتب الصحفى المختص بالشؤون الدينية فى كتابه المعنون: «عاصفة على الكنيسة»، مستعينا بالإحصائيات

والوثائق، لوجدنا أنها تدور حول: الكنائس الخفية التى تقام فى المنازل بعيدا عن النفوذ السلطوى الحالى؛ وانشقاق الكنيسة الكاثوليكية الهولندية وفضيحة كتاب التعليم الدينى الهولندى الجديد الصادر عام ١٩٦٦م والذى يضم تأكيدات مخالفة لعقيدة الإيمان المفروضة عبر المجامع على مر القرون، فيما يتعلق بالخطيئة الأولى والحمل العذرى للسيدة مريم وغموض سر الفداء وسر القربان ومعصومية الكنيسة من الخطأ وسر الثالوث وتأليه المسيح، وفاعلية الأسرار السبعة وخاصة الأفخارستيا إلخ. . ، وقطاع القساوسة المعترضون على الأوضاع الراهنة ومنهم علماء اللاهوت المنادون «بوفاة الله» والمتظاهرون الذين يحتلون الكنائس؛ وتباعد الأتباع بسبب الطابع السلطوى للكنيسة بل تباعد رجل الشارع حتى فى إيطاليا نفسها حيث مقر الفاتيكان؛ واهتزاز عقيدة معصومية البابا من الخطأ؛ وقضية تحديد النسل ومنع الإجهاض؛ وقضية تبتل الإكليروس المفروض فى مجمع عام١٦٨ ـ أى فى أواخر القرن الثانى، وتباعد الآلاف من رجال الكنيسة ومعظمهم يتباعد لعدم استطاعتهم إقناع الأجيال الجديدة بفكرة الثالوث وهربا من المؤسسة الكنسية ومحترفى السلطة فيها؛ ويحرم طاعة الكنيسة؛ وبيروقراطية الفاتيكان وممارساته القمعية؛ ومأزق موقف القس فى عالم اليوم؛ والتلاعب بالمسميات مثل تغيير اسم لجنة «محاكم التفتيش» إلى «المكتب المقدس»، ثم إلى «لجنة العقيدة والإيمان»؛ وإدانة الكيان الرأسمالى للمؤسسة الدينية؛ واكتساح السياسة وكواليسها لكافة الحقائق. . لذلك قال الكاردينال سيرى ـ رئيس أساقفة جنوة ـ: «نحن بحاجة إلى أكثر من خمسين عاما لإصلاح التلفيات التى أحدثها البابا يوحنا الثالث والعشرون فى الكنيسة»!

وعلى الرغم من هذا العدد المتداخل من القضايا الداخلية والعديد غيرها، إلا أن أكثرها خطورة وحيوية تظل القضايا الثلاث الأساسية الخاصة بالعقيدة، فرض عدم تحديد النسل، ومنع الإجهاض، وتبتل رجال الكنيسة.

ويعلق الأسقف الانجليكانى فى كتابه حول قضية العقيدة والمعنون: «ما لا أومن به»: قائلا: «يقول أحد الأناشيد: إننى لا أومن بصرامة أن الله واحد وأن الله ثلاثة. فما معنى ذلك فى واقع الأمر؟ وكأنهم قد قاموا بسلق كيان المسيحية ليختصروها إلى عبارة بنفس حموضة وغموض نظرية آينشتاين (E=MC) التى قال لنا عنها، إنها تمثل مفتاح العالم غير المرئى. . . فى البداية قد تم اختلاق هذه العقيدة لوصف وتحديد وإنقاذ تجربة معينة. لكن العقيدة قد فقدت أى علاقة لها بالواقع تدريجيا ثم يطالبوننا أن كنا نؤمن بهذه العبارة وكأنها وحدها تعنى أن تكون مسيحيا أم لا. ونظل متجمدين، ممسكين بمحارة خاوية فى يدنا، لأن الحياة التى صنعتها قد غادرتها منذ زمن بعيد»!!

أما الكاردينال ألفرينك، كبير أساقفة مدينة أوترخت بهولندا فيقول عن قضية تبتل رجال الكنيسة: «إن كل إنسان بحاجة إلى تحقيق نوع ما من الذات من خلال إنسان آخر. وفى الحياة الزوجية يتم ذلك من خلال الزوج والزوجة اللذين إذا تحابا ونجح زواجهما يكمل كل واحد منهما الآخر فى حياتهما المشتركة. والقس لا يمتلك مثل هذه الوسيلة إنه مضطر للحصول على ازدهاره فيمن يعمل من أجلهم، وفيمن يقبل مهام وظيفته من أجلهم، ومن أجل الذين يقبل أن يعيش التبتل. وعندما لا يستجيب له هؤلاء الناس أو يتجاوبون معه بأقل قدر ممكن فيتخلق حول هذا القس نوع من الفراغ. وأعتقد أنه لابد من دراسة كل هذه العوامل بدقة للتوصل إلى حلول لها. فلا يوجد فى الإنجيل، فى أى جزء منه، أية علاقة بين رجال الكنيسة والتبتل»!! ورغمها فقد بدأ فرضه عام ١٦٨ وأقر نهائيا فى مجمع ترانط عام١٥٤٦م.

أما قضية وسائل منع الحمل، فقد أعلن البابا بولس السادس خطابه الرسولى المعنون «عن الحياة الإنسانية» فى التاسع والعشرين من شهر يوليو عام١٩٦٨م، والذى أتى كالقنبلة ليهز أركان العالم المسيحى بأسره، فقد كانت أول مرة يتخذ فيها أحد البابوات قرارا ضد وسائل منع الحمل، وذلك «بموجب التوكيل الذى خوله له المسيح»!! ولم يقابل أى نص بابوى بالهجوم مثلما قوبل هذا النص..

وترجع قضية إدانة الإجهاض ووسائل منع الحمل إلى مجمع ترانط الذى فرضها فى القرن السادس عشر. وتراكمت النصوص الكنسية حول أخلاقيات الزواج، وتوارث البابوات مهمة مواصلة فرضها، بينما واصل الأتباع مهمة تنظيم نسلهم.. وفى مواجهة تزايد عدم الطاعة وابتعاد الأتباع عن الالتزام بهذا القرار أقر كل من البابا بيوس الحادى عشر وبيوس الثانى عشر الوسيلة الطبيعية للدكتور أوجينو لمنع الحمل. وهى تجنب فترة تخصيب البويضة. إلا أن البابا يوحنا الثالث والعشرين، رئيس المجمع المسكونى الفاتيكانى الثانى قد عدل عن هذا الاستثناء بسبب القرار الذى اتخذه لتوصيل الإنجيل لكافة البشر، والذى أعاد البابا يوحنا بولس الثانى صياغته عام١٩٨٢م بعبارة أكثر وضوحاً هى «إعادة تنصير العالم»!

وكان هذا القرار أشبه ما يكون بالقشة التى قسمت ظهر البعير؛ لتندلع الحرب بين الأصوليين المتمسكين بالتراث الكنسى المصاغ عبر القرون، وبين الذين يدينون انحرافات الكنيسة وبذخها، ومجتمع الوفرة والمادية، وتدخل الكنيسة فى السياسة المحلية والدولية وكل ما تقوم به من أعمال قمعية تخرج عن حدودها الدينية السماوية.

٣ـ البابا يوحنا بولس الثانى
(دوره السياسى وموقفه المزدوج)

إن البابا هو الرئيس الأعلى للكيان الكنسى، وقد تغيرت ألقابه الرسمية على مر العصور ووفقا للأحداث، حتى أصبح اللقب الذى يحمله يوحنا بولس الثانى هو: «أسقف روما، خليفة القديس بطرس، نائب يسوع المسيح، أمير الرسل، الحبر الأعظم للكنيسة العالمية، بطريارك الغرب، كبير أساقفة إيطاليا، رئيس أساقفة المقاطعة الرومية، وعاهل دولة مدينة الفاتيكان»! (وذلك وفقا لما هو وارد فى موسوعة:

(Bordas: philoso phies &Religions N:951.2-A.

وكلها ألقاب تشير وتعنى أنه بمثابة قمة القمم..

ومثل هذه الشخصية المتربعة على «قمة القمم» لابد أن تتصف بقمة المعانى فى كل أقوالها وأفعالها خاصة إذا ما كانت تتبوأ مكانة عامة فى المجتمع. إلا أن مجريات الأحداث والوضع الراهن للمؤسسة الكنسية، يلقيان بظلال جد قاتمة على شخصية البابا يوحنا بولس الثانى وعلى تاريخ ذلك الكرسى الرسولى الذى يتربع عليه.. وهى ظلال إن دلت على شىء فهى تدل على أنه يقود الجناح المتطرف فى تيار التعصب الكنسى، جاعلا من مقولة «الغاية تبرر الوسيلة» مقياساً لكل شىء..

وحينما تتعدى هذه «الوسيلة» كل حدود الخطاب الآدمى لتتحول إلى أداة قمع وطمس للعقائد المسيحية الأخرى، أو لاغتيال المنشقين الذين لهم ثقلهم فى معارضة المؤسسة الكنسية أو أن تتحول إلى عمليات إبادة للإسلام والمسلمين بشتى الوسائل، فنعتقد أن مسؤولية وأمانة مثل هذه المكانة التى يحتلها البابا، تحتم عليه مراجعة التعصب المتطرف الذى يقوده والذى لا يجنح بالكنيسة بعيدا عن رسالتها السماوية البحتة فحسب، وإنما يجنح بالعالم بأسره إلى الضياع..

ولا يسع المجال هنا لحصر كافة «التجاوزات» التى اقترفها المتربعون على الكرسى الرسولى على مر العصور، وإنما سنشير إلى موقف البابا يوحنا بولس الثانى من خلال خطابه الأخير، موضوع هذا البحث، عبر ثلاثة محاور هى:

السياسة، المغالطة، التعصب الأكمه.

* إن الصراع على السلطة يعد من الأبجديات المسلم بها التى توصم بها المؤسسة

المسيحية منذ بداية تحريفها للعقيدة. . إلا أن هذا الصراع قد تحول إلى طغيان جارف فى هذا العصر، وهذا الطغيان، الذى تعجز العبارات عن وصفه، هو نتيجة لتحالف جناحى التعصب المتطرف فى المؤسسة الكنسية وفى مؤسسة السلطة المدنية فى الغرب.

فلم يعد خفيا على أحد كيف تضافرت جهود تيارى التعصب لضرب اليسار وهدم الاتحاد السوفيتي أو ما يطلقون عليه الأنظمة الشمولية. وما أكثر المراجع التى تكشف كيف تمت اللعبة ـ التى لا يسع المجال هنا لعرض تفاصيلها ـ وتكفى الإشارة إلى آليات المخابرات المركزية الأمريكية التى واكبتها آليات الفاتيكان. . وتم المخطط باستغلال الدين والسياسة والاقتصاد تحت راية الحوار من ناحية، ومن ناحية أخرى بإقامة حزب «تضامن» فى بولندا، والاستعانة بصندوق البنك الدولى لإهدار العملة المحلية مقابل الدولار، إلى جانب استخدام عملية «إظهار» السيدة العذراء فى بولندا ثم فى الاتحاد السوفيتى وإقامة «العام المريمى» لإحياء الكنيسة الأرثوذكسية هناك، عام١٩٨٨م، بمناسبة «مرور آلف عام على تعميد فلاديمير، كبير أمراء مدينة كييف، الذى أدخل المسيحية فى روسيا عام ٩٨٨ميلادية، ومنها امتدت إلى أوروبا الشرقية حتى شمال آسيا بفضل جهود المبشرين» (يوحنا بولس الثانى: «أم المخلص»، مارس١٩٨٧م)!!

ولم يعد البابا ينكر تدخلاته السياسية هذه، والتى أصبح يتحدث عنها على صفحات الجرائد. . ففى لقاء على العشاء فى مسكنه الخاص، يوم الأحد ٢٤/ ١٠/ ١٩٩٣م، مع جاس جافرونسكى، أحد النواب الأوروبيين من الحزب الجمهورى، تناول الحوار مشاكل الساعة. . وقام النائب بإعلان مضمون الحوار الذى دار بينهما إلى جريدة «لاستاميا» الإيطالية، وتناقلته عنها الصحافة الغربية. .

وننقل فيما يلى مقتطفات من ردود البابا المنشورة بجريدة (الموند فى ٣/ ١١/ ١٩٩٣م)،وفى (جريدة الفيجارو فى ١٣/ ١١/ ١٩٩٣م):

* «كان مشروعا آن نحارب نظاما شموليا وغير عادل يدعى أنه اشتراكى وشيوعى».

* «إن المهمة التى أسندها الله إلى هى مهمة الدفاع عن الكيان الإنسانى وكرامته وحقوقه الأساسية».

* «إن المشاكل العديدة الخطرة الاجتماعية والإنسانية التى تقلق أوروبا، ترجع أصولها إلى بعض مظاهر الانحلال فى الرأسمالية».

* «إن كل شىء ينحصر فى البعد الاقتصادى وحده تقريبا. وفى مثل هذا الموقف،

هناك مهمة كبرى تواجه الكنيسة، وهناك تحد حقيقى هو: الدفاع عن قيم أخرى تم نسيانها اليوم، وضرورة نشرها بأبعاد أخرى».

* «إن الرأسمالية التى هى من حيث المبادئ الأساسية تتلاءم مع المذهب الاجتماعى للكنيسة، تعد مسؤولة عن كثير من التعسفات، ومنها: عدم العدالة، الاستغلال، العنف والوقاحة. الأمر الذى يصل بنا إلى أشكال متوحشة للرأسمالية وهذه التعسفات هى التى يجب إدانتها».

* «إن من يمتلكون السلطة فى هذا العالم لا ينظرون دائما بصورة مرضية إلى بابا من هذا النوع ويقيمّونه أحيانا بعداء فى مسائل المبادئ الأخلاقية. إنهم يريدون أن تتاح لهم الطرق السهلة لممارسة الإجهاض واستخدام وسائل منع الحمل والطلاق. . . إنها إجراءات لا يقرها البابا لأن مهمته هى الدفاع عن كيان الإنسان وكرامته وحقوقه الأساسية».

ومن ناحية أخرى نطالع فى مجلة «لوبوان» حول هذا التدخل: «لم يكن يوحنا بولس الثانى بوسعه أن يحقق ذلك بمفرده، حتى وإن كان فى بولندا نفسها. . ولولا تعاون ميخائيل جورباتشوف الذى قبل «المساهمة» فى الإسراع بنهاية العالم الشمولى، لما تمكن البابا من ذلك» (١٦ أكتوبر١٩٩٣م)!. و«المساهمة» هنا تعنى التواطؤ مع الغرب ـ وما لا يدركه المتواطئون، أن الغرب الذى يتعاونون معه هو أول من يفضحهم ويشهر بهم بعد حصوله على مآربه وعلى كل ما يستطيعون تقديمه من خيانة وتنازلات. .

ولا يوجد ما يوصف به هذا الموقف أفضل مما قاله مارك ـ بونيه فى كتابه عن «البابوية المعاصرة»: «إن التوسع الكاثوليكى يعد بمثابة سياسة إمبريالية دينية عالمية قامت البابوية بقيادتها بصورة متزايدة، كما أنه يمثل موقف الكنيسة من الدول، إلى جانب طموحاتها ومصالحها والقوى التى تمتلكها البابوية فى كافة البلدان. . أى أن هذا التوسع يعبر عن وجودها العالمى، ويسهم فى أن يجعل منها قوة يتعين على أية سياسة أن تأخذ ذلك فى اعتبارها»!

ومن هنا نرى أن مبدأ الديمقراطية ـ الذى يضع السلطة فى أيدى الشعب ـ والذى يتشدق به البابا طوال خطابه هذا، لا يمكن للكنيسة أن تقبله فعلا لأنه يسلبها نفوذها، فهو عكس مبدأ «الثيوقراطية» الذى يضع السلطة فى «يد الدين» أى فى شكل حكومة إلهية فى يد رجال الدين!!

وبالتالى فإن حرية الدين والعقيدة التى يرددها، لا يمكن أن يتركها للإنسان، وذلك بزعم أنه غير قادر على الاختيار بين الخير والشر، وأنه يتعين على الكنيسة أن تختار له

ما تراه صوابا، الأمر الذى يوضح كيف لا يمكن للكرسى الرسولى أن يقر فكرة الابتعاد عن السلطة، وانفصال الكنيسة عن الدولة على الرغم من مخالفتها للعقيدة المسيحية، ويجاهد فى استماتة شرسة للجمع بين السلطتين الدينية والمدنية.. لذلك قال إيف كورنو عن سياسة البابا يوحنا بولس الثانى: «إنها سياسة الصدمات اعتمادا على الضربات العنيفة... فهذا الخطاب الأخير الخاص بالأخلاق والضمير هو أيضا كتاب تفسير سياسى... لذلك نراه يسند مزيدا من السلطات إلى الأساقفة، ويرفض أن تعتبر المسيحية مجرد ثقافة حتى لا ينتهى بها الأمر إلى الابتذال أو إلى العلمنة» (مجلة لوبوان ١٦/ ١٠/ ١٩٩٣م).

ونفس هذا التضافر السياسى - الدينى الواحد لقمع المنشقين المعارضين، ولمحاصرة الإسلام لاقتلاعه، تتم ممارسته بضراوة سواء فى أمريكا اللاتينية (حيث أصبح الكاثوليك يمثلون ٨٨٪ من التعداد، وتمت محاصرة الثورة الاشتراكية وقمع تجربة الكنيسة العمالية) كما نراه فى مختلف القارات على الصعيد العالمى.. ولا يسع المجال هنا لتناول كل هذه الأحداث بالتفصيل، لكننا سنعرض اقتضابا لموقف الفاتيكان من اليهود، وخاصة موقف يوحنا بولس الثانى، ذلك الموقف الذى يمثل المعول الآخر لضرب الإسلام والمسلمين..

فلم تعد الأحداث تترك أى مجال للشك فى أن المصالحة التى تمت عام ١٩٦٥م لتبرئة اليهود من دم المسيح، لم تكن سوى مصالحة سياسية لتدعيم الكيان الصهيونى فى فلسطين المحتلة، لقلب ميزان القوى العسكرية فى المنطقة والسيطرة على منابع البترول فيها. وهى مصالحة تنعكس أصداؤها على مجالات ثلاثة هى: اليهود واليهودية ودولة إسرائيل. وبذلك فقد أقرت الكنيسة - بجرة قلم - تبرئة اليهود، ومشروعية الصهيونية، والاستيطان الصهيونى فى فلسطين المحتلة. وذلك على حساب الحقائق الدينية والتاريخية المسيحية إذ أن كليهما لا يبرر ولا يسمح بالاحتلال القائم، كما لا يبرر ولا يسمح باغتصاب الأرض وإبادة شعبها..

وفى استطلاع قام به عدد من الصحفيين والباحثين، تم نشره فى مجلة (إكسبرس ١٦/ ١٢/ ١٩٩٣م) حول موضوع اليهود والفاتيكان، يمتد على أكثر من عشر صفحات، نرى أن الخلافات الأساسية بين العقيدتين لم تحل، بل وليس من المبالغ فيه القول بأنها لن تحل إلا إذا تمت تنازلات تؤدى إلى تغيير جذرى فى إحداهما إن لم يكن فى كليهما..

إذا يقول الحاخام يشاهو ليبوفيتز: «إن المسيحية غريبة تماما عن اليهودية ولا معنى للحوار بين الديانتين». ويؤكد إيلى برنافى: «إن الحوار مستحيل - إذا لا توجد نقاط

تلاقٍ، أما المحادثات فقد تمتد كما تشاء». ويثير الأب مارسيل ديبوا نقطة لها أهميتها إذ يقول: «إن اليهود يشعرون بالقلق حينما يتحدث الكاردينال لوستيجيه عن إعادة تنصير آوروبا وتنصير العالم».. ويوضح الحاخام دافيد روزن: «أن اليهود لم يشعروا بقلق الامتصاص وهم يعيشون فى أراضى الإسلام».

بينما يعرب الحاخام يواكنين عن قلقه ـ بل وضيقه ـ من ذلك الوصف الجديد الذى يتغنى به الفاتيكان حينما يستخدم عبارة «إخوتنا اليهود» التى يشتم فيها معنى الامتصاص الذى بدأت محاولاته من فترة بسبب الزيجات المشتركة أو تيار العلمنة الذى يزداد انتشاراً، موضحا: «أن المسيحية لم تكن لتوجد بدون اليهودية، أما اليهودية فليست بحاجة إليها ليتم تعريفها»!

وأهم من ذلك كله، أن اليهود مايزالون يرفضون فكرة يسوع إلهاً أو أنه مساويا لله. الأمر الذى نراه حتى فى أحدث المراجع اليهودية مثال كتاب المؤرخ فلاسر المعنون: «يسوع». بل إن كافة العلماء اليهود يؤكدون أن يسوع لم يحاول أبدا إيجاد ديانة جديدة وأن الذى حرّف تعاليمه هو بولس الرسول، بدءًا بأن جعله هو «المسيح» فى الوقت الذى لم يكن هو المقصود بهذه العبارة. ويؤكد الحاخام جيل برنهايم أن التحريف بدأ منذ بولس «الذى جعل يسوع يونانيا فى حين أنه يهودى.. الأمر الذى تناسته الكنيسة طوال ألفى عام».. كما يظل الاختلاف قائما حول الختان الذى ألغاه بولس وفرض التعميد بدلا عنه. وهنا يوضح الحاخام آيزنبرج قائلا: «بل لقد استبعدوا كلمة الختان حتى من التقويم وكان موقعها عند أول يناير»! ثم يضيف قائلا: «إن كل ديالكتيكية يسوع يهودية حتى الوصية القائلة «حب قريبك مثل نفسك» فهى موجودة فى سفر اللاويين»!

ويأتى الاتفاق المبرم فى ٣٠/١٢/١٩٩٣م بين الفاتيكان والكيان الصهيونى فى فلسطين المحتلة بمثابة طعنة جديدة للقضية الفلسطينية وصفعة استفزازية للإسلام والمسلمين. فالاعتراف «بالوضع الراهن» وبأن «القدس عاصمة لإسرائيل» يعنى ضياع ثالث الحرمين وثانى الكعبتين..

وهنا لابد من الإشارة إلى الموقف السابق للبابا من قضية فلسطين، ففى شهر مارس عام ١٩٩١م كان قد قام باستدعاء أباطرة الكنائس الكاثوليكية فى الشرق وأساقفة البلدان الغربية المتورطة فى حرب الخليج، وبعد تعرضه للمآسى التى تعانى منها الشعوب فى تلك المنطقة، تطرق إلى القضية الفلسطينية قائلا: «إن عدم العدالة التى يقع ضحيتها الشعب الفلسطينى، يتطلب منا جميعا أن نلتزم بها وخاصة المسؤولين عن الأمم

والجماعات الدولية. إذ لن يمكن لهذا الشعب أن ينعم بأن يعترف به فى كرامته ـ ليكون هو أيضا ضامنا لأمن الجميع ـ إلا مع البحث المكثف عن بداية حل فورى لقضيته. إن الإشارة إلى الأرض التى ولد بها المسيح قد جذبت انتباهنا إلى المدينة التى وعظ بها والتى مات وبُعث فيها، أى إلى القدس بأماكنها المقدسة أيضاً بالنسبة لليهود والمسلمين وجماعاتها. إن هذه المدينة التى يتعين عليها أن تصبح ملتقى سلام، لا يمكن أن تظل سببا للخلاف والمناقشات» (citta' del Vaticano 4-6 mars 1991)

وبغض الطرف عن اللعب بالألفاظ فيما يتعلق بالاعتراف بالشعب الفلسطينى فى كرامته أو البحث المكثف عن بداية حل، وليس عن حل جذرى وعادل، فلم يمض آكثر من عامين على هذا التصريح حتى قام نيافته بالاعتراف بإسرائيل وبالوضع الراهن لمدينة القدس فى تلك الاتفاقية المبرمة فى نهاية عام ١٩٩٣م! متناسيا بذلك إدراكه للظلم أو لعدم العدالة التى يخضع لها هذا الشعب، ومتناسيا حتى تلك الشذرات التى لوح بها من كرامة وبداية لحل ـ ليدفع بالقضية برمتها إلى بحر النسيان، إلى أن يتم الإجهاز على ذلك الشعب الفلسطينى الذى لا يمثل فى نظرهم ـ فى واقع الأمر ـ سوى مجرد «جسم الجريمة». . فمثله مثل أى جسم لجريمة وقعت لابد لمقترفها من أن يتخلص منها! وهو ما يتم فعلا بإيقاع بطىء منذ غرس الكيان الصهيونى فى فلسطين المحتلة منذ ١٩٤٨م حتى يومنا هذا. .

وهذا «الأمر الواقع» الذى اعترف به نيافته فى البند رقم ١٣ من الاتفاقية المذكورة يشمل بالطبع مدينة القدس، ويتضمن بالتالى الاعتراف بذلك القرار الذى اتخذه الكنيست فى ٣٠/ ٧/ ١٩٨٠م واعتبر القدس بمقتضاه «عاصمة إسرائيل إلى الأبد»!!

واللافت للنظر أن يأتى هذا القرار الصهيونى فى نفس ذلك الشهر الذى أعلن فيه البابا يوحنا بولس الثانى عن رأيه فى قضية القدس، الوارد فى جريدة «أوسرڤاتورى رومانو» الصادرة يوم ٨/ ٧/ ١٩٨٠م ـ أى بعده بثلاثة أسابيع فقط!. . الأمر الذى يكشف عن مدى توغل الصهيونية فى الفاتيكان ومدى سيطرتها عليه. . كما يكشف عن مدى تغاضى البابا عما يوجهه له الكيان الصهيونى من صفعات. .

ولم تمض أيام حتى اعترفت الولايات المتحدة بالقدس عاصمة لإسرائيل فى تحد سافر من السلطتين الدينية والسياسية، وإن كان يقابله خزى الصمت والتواطؤ من قبل حكام المسلمين ورؤسائهم. .

وتستمر المجازر الصهيونية لتدين غياب الضمير فى الغرب، وغياب السيادة لدى المسؤولين المسلمين، فمذبحة الحرم الإبراهيمى (٢٥/ ٢/ ١٩٩٤م) التى قام بها

الطبيب الصهيونى باروخ جولد شتاين، الأمريكى الأصل، والتى راح ضحيتها أكثر من خمسمائة شهيد وجريح، تكشف عن حقيقة الموقف. وقد كتب إيف كيوو قائلا: «إن انتماء باروخ جولد شتاين المزدوج [للصهيونية ولأمريكا] يؤكد أنها ليست عملية مجنون، وإنما هى جريمة قتل معدّة مسبقا. . . فالمسؤولون يعلمون تماما أن مسعورى الصهيونية قد تسللوا سرا، ويخزنون الأسلحة والمتفجرات، ويقومون بإعداد المخابئ لرؤسائهم، وينعمون بمساعدات فعالة فى الخارج. . . إن أعضاء كاهانا لهم معسكر تدريب فى الولايات المتحدة. . . ومجرزة الحرم الإبراهيمى تعنى أنه تم اجتياز نقطة اللاعودة فالتعايش الصعب أصبح مستحيلا حتى أثناء المرحلة الانتقالية للحكم الذاتى» (مجلة إكسبرس ١٠/ ٣/ ١٩٩٤م).

* أما المحور الثانى لموقف البابا يوحنا بولس الثانى والذى أوجزناه فى عبارة «المغالطة»، فهو من السمات الرئيسية لهذا الخطاب الرسولى الأخير، فكيف نرى نيافته يتمسك بالوصايا العشر وسفر التكوين ـ الذى يتضمن قصة إبراهيم والعهد الأزلى ـ علما بأن بولس قد ألغاها بوضوح لا لبس فيه؟! ثم نراه طوال الخطاب لا يكف عن ترديد عالمية الكنيسة والتمسك بأسرارها وخاصة بسر القربان، علما بأن بولس هو الذى ابتدعه، بل ويعد فى نظر العقائد الأخرى، وفى نظر اليهود الذين تحالف معهم، بمثابة تحريف للعقيدة! وهنا لا يسعنا إلا أن نقول: ألا يعد الأخذ بما ألغاه بولس خروجا عن تعاليمه التى تلتزم بها الكنيسة والتى تمثل المسيحية الحالية؟!

ثم نرى نيافته يتغنى بحقوق الإنسان وحرية العقيدة وحرية الاختيار، ثم يتمسك بإصرار بفرض كاثوليكيته وحدها! ـ نراه يحارب الشمولية السياسية ثم يقوم بفرض شمولية التطرف الكاثوليكى وحده! ونراه يستشهد مرتان بالآيتين ٩، ١٠ من رسالة بولس إلى أهل كورنثيوس، وهى تدين «مضاجعو الذكور» علما بأنه قد طالب فى كتابه «التفسير الدينى الجديد» (الصادر فى نوفمبر ١٩٩٣م والذى يعد هذا الخطاب تكملة له ـ على حسب قول نيافته) بضرورة تقبلهم ومعاملتهم بكل العطف والرعاية! . .

ولم يعد خافيا على أحد أن الانحراف الجنسى بين رجال الإكليروس ونسائه، قد أصبح يمثل إحدى الآفات الرئيسية التى تصدع أرجاء المؤسسة الكنسية ـ فما أكثر المراجع التى تتناول هذا الموضوع صراحة بحثا عن حل له، وتكشف بالإحصاءات التى تصل نسبتها إلى ٨٠٪ فى بعض البلدان، ما يعانى منه رجال الكهنوت. . وذلك بخلاف مشكلة الإيدز وارتفاع نسبة الإصابة به بينهم. . وكلها مشاكل وثيقة الصلة أو هى بالفعل نتيجة لفرض بدعة التبتل التى بدأ إدراجها فى أعمال مجمع عام١٦٨م وفرضها

على إكليروس روما، ثم تعميمها على إكليروس أوروبا فى مجمع ترانط عام ١٥٤٦م! (دوكين: غدا، كنيسة بلا قساوسة)..

ومن ناحية أخرى نراه يقوم بفرض مصداقية الأناجيل الحالية، فى الوقت الذى يعلم فيه تماما أنه قد «عُبث بها» على مر القرون، بل إن هذه المسألة تعد من أهم المعارك التى تواجهها الكنيسة منذ عصر التنوير، وتواجه البابا بكل ما تثيره من عصف للتحريف المتراكم.. بل لقد وصل التعصب والتمسك بالخطأ إلى درجة فرض قَسَم «معاداة الحداثة» على رجال الإكليروس (ج. توماس: مجمع الفاتيكان المسكونى الثانى).. ومعروف أن استخدام عبارة الحداثة فى المجال الكنسى تعنى عملية كشف ما تم فى نصوصه من تلاعب وتحريف..

.بل إن قرارات الكنيسة نفسها قد تأثرت بهذه المغالطة.. إذ جاهدت البابوية على مر العصور حتى توصلت إلى اتخاذ قرار لا سابقة له، وفرض «أن البابا يتمتع بسلطة مطلقة وعالمية»، كما تم فرض« معصوميته من الخطأ وصوابه المطلق».. ولا يكف نيافة البابا يوحنا بولس الثانى عن ترديد ذلك فى أكثر من موضع بخطابه الأخير خاصة، ثم نراه فى نفس ذلك الوقت يتحدث عن «الإدارة الجماعية».. أى عن التضامن بالفعل وبالقانون بين كافة الأساقفة بناء على الطابع السرى لترسيمهم.. أى أنه يشرك الأساقفة فى نفس سلطة المفترض أنها «إلهية» ليمنحهم مزيدا من السلطات القمعية.. وإشراك الأساقفة فى السلطة البابوية يمثل تناقضاً للفكرة التى تفرضها الكنيسة من أن البابا هو «مندوب يسوع المميز بالاختيار الإلهى»، ومن أن «بابا روما وحده هو خليفة بطرس».. ومن هنا فهو «الشخص الوحيد الذى يحق له تفسير كلام الله وذلك بموجب السلطة التى منحها له المسيح» - كما يقولون - ! الأمر الذى جعل الكنيسة تفرض «معصومية البابا من الخطأ وصوابه المطلق» فى المجمع المسكونى الفاتيكانى الأول عام ١٨٧١م..!! كما أن إضفاء سلطة البابا على الأساقفة يعنى قيام البابا بإضفاء كل هذه الصفات والمميزات «الإلهية الكنسية» على طبقة بعينها من الأفراد لتزيد الكنيسة من إحكام قبضتها على كافة الأمور التى يفلت زمامها من سيطرتها.. وإن صح ذلك فإنه يعنى ضمناً أن الأساقفة قد حرموا لفترة طويلة من حقوقهم الإلهية!! وياله من خلط..

ولا نقول شيئا عن اللعب بالألفاظ والاستشهاد بآيات الأناجيل بغير مدلولها، أو فى غير سياقها، ولاعن الإشارة إلى آيات لا تمت بصلة إلى الموضوع المستشهد بها فيه أو المشار إليه.. وإنما سننتقل إلى المحور الثالث والأخير من هذه النقطة وهو: التعصب الأكمه.

* وعبارة التعصب هذه تشير إلى الجانب الشديد التطرف فى موقف البابا والذى يمكن أن يطلق عليه ـ بلغة العصر ـ عبارة «أصولية إرهابية» ـ وهى عبارة أبعد ما تكون عن السمة المفترضة فيمن يعتلى قمة كهنوت عقيدة سماوية بحتة، تطالب بالحب والتضحية بالذات من أجل الآخرين.. فإذا ما نظرنا إلى الموقف الحالى للبابا لوجدناه يتسم بالتعصب المتطرف على الصعيد السياسى والاجتماعى والثقافى؛ فهو يتمسك بالسلطة المركزية للفاتيكان ويزيد من نفوذها؛ ويفرض الأصولية الرجعية بكل ما بها من تحريف بمزيد من القمع حتى ـ أو رغم ـ العبارات المبهمة؛ ويفرض المفهوم الغربى الفاتيكانى للتعبير عن الإيمان.. وهذا التعصب لا يمكن أن ينجم عنه سوى ردود فعل متطرفة لا من قبل أتباع الديانات غير المسيحية فحسب، وإنما لدى أتباع العقائد المسيحية الأخرى أيضا..

فالإصرار طوال الخطاب على أن المذهب الكاثوليكى وحده هو الخط الوحيد السليم للعقيدة، والإصرار على فرض هذه العقيدة على العالم بأسره، والإصرار على اعتبار السيد المسيح هو الطريق الوحيد إلى الله والشرط الوحيد للخلاص، والإصرار على فرض ذلك كله على أنه «الحقيقَة الوحيدة» وفرض هذه الحقيقة على أنها أهم من الحرية ومن حرية الاختيار التى تمثل قمه التجربة الإنسانية.. والمطالبة «بضرورة التمسك بعدم تغيير أى شىء فى عقيدة الإيمان» أى الإصرار على التمسك بكل ما أجرى فيها من تعديل وتبديل على مر العصور وحمايتها من أى تغيير، والإصرار على فرض الاعتقاد بأن بعث يسوع يعنى ويمثل سبب وجود الكنيسة، وأن وجود الكنيسة يعنى التبشير وتنصير العالم، والمطالبة «بتجنيد كافة المسيحيين من أكبر أسقف إلى آخر الأتباع المدنيين أو العلمانيين للمشاركة فى هذه العملية» وأن هذا الذى يفُرض عليهم يتم «بموجب التعميد الذى تلقوه».. والمطالبة فى نفس الوقت بضرورة حماية هؤلاء الأتباع من أية عقيدة أخرى أو من أية نظرية مخالفة، أى الإقرار فى نفس الوقت بضعف ووهن هذا البنيان الذى قد يتأثر بمن يحاربهم كل ذلك برمته لا يمكن أن يوصف إلا بالتعصب الأكمه.. أى التعصب الذى لا يرى ولا يسمع أى شىء آخر سوى رأيه المتسلط..

وأخطر ما فى مثل هذا الموقف، أنه لم يعد يتضافر مع آليات السياسة الغربية فحسب، وإنما أصبح يؤثر عليها، ويقود تحركاتها على الصعيد العالمى، وذلك هو ما يتعين على الساسة والحكام والرؤساء والمفكرين وعلماء الدين أن يدركوه ويضعوه فى الاعتبار ومواجهته بالصرامة اللازمة بدلا من التخاذل والاستكانة أو التواطؤ..

ولا يتوقف الدور القيادى للبابا عند حد التدخل فى الشؤون السياسية، والعمل

على السيطرة عليها فحسب، وإنما يتعداه لفرض النمط الحضارى الغربى على العالم ليتواكب مع النظام العالمى الواحد والدين العالمى الواحد! فذلك هو ما طالب به حينما أعلن ضرورة تنصير العالم فى نوفمبر ١٩٨٢م من مدينة شانت يقب بشمال غرب أسبانيا . . تلك المدينة التى كانت آخر ما وصل إليه الفتح الإسلامى، وأول ما سقط فى حرب الاسترداد . . ويكفى أنها تحمل اسم حامل الراية أثناء الحروب الصليبية ضد مسلمى الأندلس . .

فبعد أن طالب بتنصير العالم أمام حشد مكون من قرابة مليونين من الأتباع وأغلبهم من الشباب الذى يحاول استرداده من الضياع، راح يردد ذلك النداء الذى جمع فيه بين الكنيسة وأوروبا والحضارة الأوروبية قائلا: «يا أوروبا . . . عودى إلى رشدك، كونى نفسك! استكشفى أصولك! أحيى جذورك! أحيى تلك القيم الأصيلة التى جعلت تاريخك مجيدا وجعلت وجودك مثمراً على القارات الأخرى»!!

وقد تغافل نيافته أن تمجيده لتلك الأصول الأوروبية ولثقافتها، وتمجيده لسيطرتها الروحية، يعنى تكريسه للمستعمر القديم، لذلك المستعمر الذى فرض نفسه منذ خمسة قرون على تلك «القارات الأخرى» بعد أن قام البابا وقتها بتقسيم العالم الجديد بين أسبانيا والبرتغال تحت زعم التبشير وإعادة نظام العبودية! وهو وجود قد أدى إلى قتل شعوب تلك القارات، وعمل على إبادة حضاراتها وطمس معالم ثقافاتها وقمع حرياتها، وسرقة ثرواتها ومواردها البشرية والطبيعية . .

ذلك هو ما تم «بفضل» الاستعمار الرأسمالى الإمبريالى التبشيرى، وتلك هى «أصولية» المغرب، وأصوله التى يعمل البابا على مواصلتها وفرضها من خلال حثه الغرب على تنفيذها مع الشعوب الإسلامية!

ويبقى السؤال عالقا: كيف يحاول البابا إشعال حمى تلك الحضارة من «جذورها» وفرضها على العالم الإسلامى، ثم نراه طيلة خطابه الأخير يهاجم أخلاقيات تلك الحضارة الغربية وانحلالها؛ ليبرر فرض المزيد من سلطاته القمعية؟! كيف يحارب «النسبية الأخلاقية» التى لا ترى فى الشذوذ الجنسى والانحلال أى عيب بل تدافع عنهما بحماس شديد ثم يطالب بالرأفة نحو المنحرفين والعمل على فرض هذه الأخلاقيات على العالم الإسلامى؟!

٤ ـ تنصير العالم

من الوقائع المسلّم بها فى كافة المراجع التاريخية الموضوعية، أن عملية التنصير قد حلت محل الحروب الصليبية بعد فشلها فى القضاء على الإسلام. . تلك الحروب التى بدأت تحت ستار «الحج المسلح» إلى الأراضى المقدسة لحمايتها، ثم سرعان ما تكشف وجهها الآخر: السياسى ـ الاقتصادى ـ الاستعمارى. . .

كما بات من المسلّم به أيضا ـ فى نفس هذه المراجع ـ أن عمليات التبشير كانت ـ وما زالت ـ تواكب عمليات الاستعمار بأشكاله المختلفة المتنوعة. . بل ها نحن نطالع عن عمليات التبشير هذه، فى واحدة من أهم الموسوعات الفرنسية، «أنها قامت أيضا بالاستعمار، بل إنها قامت بما هو أسوأ: فلقد غزت، وأبادت، كما أنها قد صادرت وأفسدت واحتلت. . . ولابد من الإقرار بأن التوافق الحميم بين المبشّر وكل من الجندى والحاكم والمُستغل والتاجر كان من السمات المتضافرة التى يمكن تفسيرها أو تبريرها. إلا أن الأخطر من كل هذا هو ذلك الحرمان المحبط الناجم عن سرقة شخصية الخاضعين لعملية التبشير وضياع هويتهم الثقافية وهويتهم الاجتماعية ـ الدينية. وهنا يمكن القول بأن كافة السرقات الأخرى قد تهون بالمقارنة بما يقوم به هؤلاء السرّاق» ـ ويقصد الكاتب هؤلاء المبشرين! (Enc.universalis'vol.11).

ويقول الأب ميشيل ليلونج مؤكدا نفس الفكرة الرابطة بين الاستعمار والتبشير ـ وإن كان فى سياق آخر ـ يقول: «إن التوجس من أعمال المبشرين فى البلدان الإسلامية أصبح أكثر حدة منه فى القرن الماضى. . فالكنائس كثيرا ما استفادت من التوسع الاستعمارى لمد تأثيرها فى إفريقيا وآسيا. وفى يومنا هذا فإن حماس بعض الرهبان والرعاة، وبعض الجماعات العلمانية ـ المتحمسة أكثر منها مدركة لحقيقة الموقف ـ فإنها تخلط خلطا جسيما بين التبشير والدعاية، رغم التوجيهات الصادرة عن السلطات المسيحية فى الفاتيكان عام ١٩٩١م»(L'eglise Catholique et L'Jslam) . .

وهذه التوجيهات يبدو مضمونها من مجرد عنوانها الوارد فى كتاب ليلونج وهو: «الحوار والتبشير، تأملات وتوجيهات متعلقة بالحوار بين الديانات والتبشير بالإنجيل». . كما ندرك فى نفس الوقت أن ما يعاتب عليه الأب ليلونج بعض الرهبان الرعاة وبعض الجماعات العلمانية هو ذلك الحماس الزائد الذى يكشف المخطط بخروجهم عن التعليمات الصادرة عام ١٩٩١م، والتى تنص على التسلل البطىء من خلال الحوار بدلا من المواجهة التى لم تعد فى صالح المبشرين!

والأب ميشيل ليلونج هذا من الأعضاء البارزين فى جمعية الحوار الإسلامى ـ المسيحى فى فرنسا!

وإذا ما كانت الصلة بين الاستعمار والتبشير ثابتة لا يمكن إنكارها أو إغفالها، بل إن بعض المراجع تطلق على الكنيسة عبارة «الشريك الكامل للإمبريالية الغربية»، فإن أخطر ما يواكبها فعلا، هو عملية اقتلاع الهوية الحضارية. إذ نطالع فى نفس الموسوعة: «فأينما تم غرس المسيحية تم هدم الحضارات القائمة من أجل إقامة حضارة مقلدة للنمط الغربى. . . لأن هذه الإرساليات التبشيرية قد نقلت البنيات والأساليب الذهنية الحياتية للحضارة الغربية. الأمر الذى حال دائما دون وقوع أى انقطاع أيديولوجى عند انقطاع السياسة الاستعمارية» ـ أى عند انقطاع التواجد الاستعمارى.

فالتبشير، الذى يقوم فعلا بدور الشريك الكامل للإمبريالية الغربية باقتلاع الحضارات، يُعد الأداة التى تتم بها عملية التغريب: «فالإمبريالية هى ذلك الوجه القبيح الغاشم لتغريب العالم» على حد قول سرج لاتوش فى كتابه المعنون «تغريب العالم»، الذى يوضح فيه «كيف انقضّت فرق المبشرين إلى جانب التجار والعسكريين لتكتسح العالم الثالث، وساهموا فى نشر أسطورة سيطرة الغرب لتبدأ أمركة العالم. . وكيف أن عملية التغريب هذه لم تكف عن أن تكون عملية تنصير، وأن أغلبية مشاريع التنمية فى العالم الثالث تتم بشكل مباشر أو غير مباشر تحت علامة الصليب. . وكيف أن الغرب قد فرض الاقتلاع والعبودية ليواصل رجال الدين الكاثوليك مسيرة القمع والاضطهاد»!

ولقد تغيرت مسميات مهمة التبشير على مر العصور وفقا للظروف السياسية والاجتماعية. ففى القرن السادس عشر كانت تتم تحت زعم «إنقاذ أرواح البشر من الجحيم»، ثم اختصرت إلى عبارة «إنقاذ الأرواح» وتعليمها الإنجيل لإدماجها فى الكنيسة! وفى مطلع هذا القرن تغيرت العبارة لتصبح «غرس الكنيسة» تم تحولت إلى «غرس الإنجيل»! وفى المجمع الفاتيكانى المسكونى الثانى اتخذت تركيبة لغوية أكثر التواءً لتصبح: «توصيل الإنجيل لكافة البشر»، مع تغيير الشكل المباشر القهرى للتبشير إلى نمط جديد قائم على «المعايشة»، واللجوء إلى «الحوار» لتتم عملية التنصير بأقل قدر ممكن من المقاومة! . . أى اللجوء إلى ذلك الطُعم الجديد الذى يُستخدم كغطاء، أو على حد قول أوليفييه كليمون: «إن هذا الحوار ـ التبشير عبارة عن عملية تغليف مذّهبة عصرية لحبة قديمة كانوا يفرضونها قهرا على الشعوب فيما مضى» (uu respect têtu).

وسنرجىء تناول لعبة الحوار إلى النقطة التالية والأخيرة من هذا البحث لنعود إلى

التبشير وتنصير العالم والخطاب الرسولى الذى نحن بصدده.

وترجع الدَفْعَة الجديدة لعملية تنصير العالم إلى المجمع الفاتيكانى المسكونى الثانى عام ١٩٦٥م.

فعلى الرغم من موقف التيار المتعصب فى الكنيسة من العلوم الحديثة ورفضه لها ـ الأمر الذى نجم عنه فرض الأصولية واستبعاد الحداثة لعدم كشفها عما تم من تحريف وتوجيهها إلى المجتمع المدنى، إلا أن علماء المجمع الأخير قد لجؤوا إلى أحدث ما توصل إليه علم تاريخ الديانات، وخاصة كتابات ميرسيا إيلياد التى أوضح فيها كيف أن التجربة الدينية للإنسان لا تمثل مجرد لحظة تاريخية للشعور أو الضمير، وإنما هى عنصر أساسى فى بنيته.. وكيف أن هذه التجربة الدينية لا يمكن فصلها عن المجهود الذى يقوم به الإنسان لبناء عالم له معنى، أى أنها جزء لا يتجزأ من كيانه.

وقد استحوذ المجمع على هذه المعطيات الحديثة لعلم تاريخ الديانات، ليخرج منها بأنها تمثل الركائز الأساسية لمذهب الوحدة الروحية بين البشر كتبرير لرفع شعار نظرية «عالمية الخلاص» التى ابتدعها بولس الرسول، وأن المسؤولية تقع على الكنيسة لإنقاذ الإنسانية من الضياع نظرا لحاجتها إلى الخلاص وخاصة الشعوب غير المسيحية التى «من حقها» أن تنعم بالخلاص هى أيضا!! لذلك طالب المجمع بتغيير التكتيك التبشيرى وفرض استخدام أسلوب الحوار بدلا من المواجهة والصدام.

من هنا يمكن إدراك الدوافع المحركة للبابا يوحنا بولس الثانى الذى تولى مواصلة تنفيذ هذه المهمة بتسلط وكأنها قضية شخصية ـ بكل ما يتضمنه ذلك من تعنت ومغالطات!

فما أن تم انتخاب البولندى كارول ڤويتيلا ليترأس الكرس الرسولى فى الفاتيكان حتى ارتفعت التساؤلات حول موقفه من الإسلام والمسلمين.. وقد أجاب نيافته على هذه التساؤلات فى السابع والعشرين من شهر أبريل عام ١٩٧٩م ـ أى بعد انتخابه بأقل من عام حينما استقبل أعضاء السكرتارية الدائمة لغير المسيحيين، الذين اجتمعوا فى جمعية بكامل هيئتها، قائلا لهم: «إن المغفور له بولس السادس الذى أسس هذه الجمعية والذى أعرب عن كم من الحب والاهتمام بغير المسيحيين لم يعد بيننا، وإننى لواثق من أن البعض يتساءل: إذا ما كان البابا الجديد سيولى نفس الاهتمام بالمجال الواسع للديانات غير المسيحية. ولقد جاهدت للرد على هذا التساؤل فى خطابى المعنون: «رسالة الفادى»... وإننى لأود وأرغب أن تكون الرغبة فى الحوار من أجل الخلاص أكثر صرامة فى الكنيسة بأسرها، بما فى ذلك فى البلدان ذات الأغلبية المسيحية. إن

التنشئة على الحوار مع أتباع الديانات المختلفة يجب أن يمثل جزءاً من الإعداد المسيحى خاصة بين الشباب». ومن الواضح هنا أن الحوار فى نظره مرتبط بالخلاص أو هو بعينه التبشير.

ثم توالت إشاراته فى العديد من خطبه إلى «التقدير الذى تكنه الكنيسة الكاثوليكية للقيم الدينية فى الإسلام».. ولسنا هنا بصدد تحليل عباراته الزائغة التى لم يرد بها أبداً عبارة «الاعتراف» بالإسلام وإنما دائما التقدير للقيم، لننتقل إلى الخطاب الذى ألقاه فى الدار البيضاء بالمغرب يوم ١٩/٨/١٩٨٥م حيث تعرض لذلك الحوار - الطُعم قائلا:

«إن الحوار بين المسيحيين والمسلمين يعد اليوم أكثر ضرورة من أى وقت مضى. فالكنيسة الكاثوليكية تنظر باحترام إلى مسيرتكم الدينية، وتعترف بقيمتها وبثراء تراثكم الروحى. ونحن أيضا، المسيحيين، نفخر بتراثنا الدينى. وأعتقد أنه يتعين علينا، مسيحيين ومسلمين، أن نعترف بسعادة بالقيم المشتركة بيننا وأن نحمد الله عليها. فكل منا يؤمن بالله، الله الواحد، الذى كله عدل ورحمة؛ ونؤمن بأهمية الصلاة، والصوم والزكاة، وبالعقاب والثواب؛ كما نؤمن بأن الله سيكون الحاكم الرحيم فى نهاية الزمان ونؤمن بأنه بعد البعث سيكون راضيا عنا وسنكون راضين عنه».

«والأمانة تقتضى أن نعترف أيضا بخلافاتنا وأن نحترمها. والخلاف الأساسى هو بالطبع نظرتنا إلى شخص يسوع وعمله فى الناصرة. فأنتم تعلمون أن يسوع هذا بالنسبة للمسيحيين، يدخلهم فى معرفة حميمية بأسرار الله ويدخلهم فى تداخل بنينى بهباته لدرجة أنهم يعتبرونه ويطلقون عليه الرب والمخلص».

«إنها خلافات مهمة يمكننا تقبلها بخشوع واحترام فى تسامح متبادل؛ وهناك سر فى هذا وإننى لعلى يقين من أن الله سيكشفه لنا ذات يوم».

إن التلاعب بالألفاظ والمراوغة فى العبارات، ليست بحاجة إلى توضيح، لكن تجدر الإشارة إلى إغفاله أن «الله قد تحول فى العقيدة المسيحية إلى ثلاثة، وأنه قد تجسد فى السيد المسيح، وأنه لم ينزّل «الأسرار السبعة» وإنما التعصب الكنسى هو الذى ابتدعها.. كما أن الزكاة غير واردة بالمسيحية، وأن الخلاف الأساسى بينها وبين الإسلام ناجم عما تم فيها من تحريف كشفه القرآن بوضوح، بينما أضغمه نيافته فى عبارات «المعرفة الحميمية» و «التداخل البنينى»! ومن ناحية أخرى، فإن مطالبته بأن يتقبلها المسلمون «بخشوع واحترام وتسامح» تعنى مطالبته لهم بالخروج عن دينهم والقيام بتحريف أكيد للقرآن الكريم الذى أدان التثليث والتجسد بصريح العبارة فى العديد من الآيات..

وتجدر الإشارة هنا أيضا إلى نقطتين:

أولا:

عملية التحريف الجديدة التى تتم بتوجيه من الفاتيكان وفى مواكبة صموت لأحداث الحوار ـ التبشير، إذ يقومون بإسقاط ما تم فى المسيحية من مآخذ وإلصاقها بالقرآن، كما يقومون بأخذ بعض مميزات الإسلام لإضافتها إلى المسيحية، من قبيل أنها «صالحة لكل زمان ومكان» كالإسلام، أو ما أوردناه عن مدير معهد الدراسات السياسية فى فرنسا، السيد أوليڤييه كاريه الذى أورد فى كتابه الصادر عام ١٩٩٣م أن القرآن لايدين التثليث والتجسد وإنما يدين المبالغة المسيحية! أو تلك الإشارة الواردة فى قاموس الثقافة العامة من أن «صياغة القرآن قد انتهت عام ٩٣٥م ميلادية ـ أى أنها أستغرقت أكثر من ثلاثة قرون!! وقول البابا عن الزكاة فى الفقرة السابقة، أو فرض استخدام المسبحة على الأتباع المسيحيين فى أحد المجامع عام١٩٥١م.. وهذه مجرد إشارة إلى مجال تحريف جديد يتم بلا ضجيج بنفس أسلوب التسلل عبر الحوار، وعلى علماء الإسلام أن يتصدوا له..

ثانيا:

نقطة ضرورة توضيح اختلاف موقف أتباع كل من المسيحية والإسلام عن بعضهما بعضا: فالتيار المتعصب فى الكنيسة لم يكف عن محاربة الإسلام بشتى الوسائل منذ ظهوره. ولا نشير هنا إلا إلى عملية التشويه والتحريف التى قام بها الغرب ضد الإسلام ونبيّه خاتم المرسلين، فى كافة المجالات العلمية والدينية والثقافية ـ حتى شبت أجياله على كراهية الإسلام والمسلمين.. وهو ما يمثل إحدى آفات المؤسسة الكنسية ـ فما زالت عملية محاولة تشويه الإسلام وتحريف القرآن مستمرة حتى يومنا هذا، ومنها تلك الترجمة المغلوطة التى قام بها المستشرق الفرنسى جاك بيرك الذى يطالب بإسلام علمانى، وبفصل الدين عن الدولة، ورفض السُنة، وتطوير المرأة المسلمة بجعلها تحيد عن مسارها الإسلامى (وهو ما أعلنه فى حديث له بإذاعة مونت كارلو فى ٨/ ٣/ ١٩٩٤م)!

أما المسلمون، فلم يقوموا بتشويه المسيحية وتجريمها، وإنما قاموا بكشف ما تم فيها من تحريف للعقيدة على مر العصور والمجامع.. وقد بدأت عملية الكشف هذه بما أنزله الله عز وجل فى القرآن الكريم من آيات صريحة، أتت الاكتشافات العلمية الحديثة وخاصة مخطوطات قمران وغيرها لتكون دليلا لغير المصدقين..

ونعود إلى قضية التبشير وتنصير العالم وإلى خطاب «رسالة الفادى» الذى قال عنه البابا إنه قد أعرب فيه عن رأيه وموقفه من الإسلام. وإذا ما تابعنا مجرد فهرس هذا الخطاب الذى يتكون من ثمانية فصول، ويقع فى مائة وأربع وأربعين صفحة ـ فى ترجمته العربية الصادرة عن اللجنة الأسقفية لوسائل الإعلام ونشر بعناية مجمع الكنائس الشرقية ـ لقرأنا بيان الفصول وتقسيماته الفرعية على النحو التالى بخلاف المقدمة والخاتمة:

* الفصل الأول: يسوع المسيح المخلص الوحيد: لا يأتى أحد إلى الأب إلا بى، الإيمان بالمسيح معروض على حرية الإنسان، الكنيسة آية الخلاص وأداته، الخلاص تقدمه للبشر جميعا، نحن لا يسعنا أن نسكت..

* الفصل الثانى: ملكوت الله: المسيح يجعل الملكوت حاضرا، ميزات خصائص الملكوت ومتطلباته، ملكوت الله يتم ويعلن فى شخص القائم من الموت، علاقة الملكوت بالمسيح والكنيسة، الكنيسة فى خدمة الملكوت..

* الفصل الثالث: الروح القدس محرّك الرسالة الأول: الإرسال إلى أقاصى الأرض، الروح يقود الرسالة، الروح يجعل الكنيسة كلها رسولية، الروح حاضر وفاعل فى كل زمان ومكان، ليس النشاط الإرسالى إلا فى بدايته..

* الفصل الرابع: آفاق الرسالة «إلى الأمم» اللامحدودة: وضع دينى معقد ومتحرك، الرسالة إلى الأمم تحتفظ بقيمتها، إلى كل الشعوب رغم الصعوبات، حقول الرسالة إلى الأمم، أمانة للمسيح وتعزيز للحرية المسيحية، وجهوا الأنظار نحو الجنوب ونحو الشرق..

* الفصل الخامس: طرق الرسالة: الوجه الأول للتبشير بالإنجيل هو الشهادة، البشرى الأولى بالمسيح المخلّص، توبة وعماد، تأسيس الكنائس المحلية، «الجماعات الكنسية الأساسية» قوة تبشير بالإنجيل، تجسيد الإنجيل فى ثقافات الشعوب، الحوار مع الإخوة من ديانات أخرى، تنشيط التقدم بتربية الضمائر، المحبة مصدر الرسالة ومقياسها..

* الفصل السادس: المسؤولون والعاملون فى الرعاية الإرسالية: المسؤولون الأولون عن النشاط الإرسالى، مرسلون ومؤسسات «إلى الأمم»، كهنة أبرشيون لأجل الرسالة الشاملة، خصب التكريس الرسولى، جميع العلمانيين مرسلون بحكم عمادهم، نشاط معلمى التعليم المسيحى وتنّوع الخدم، مجمع تبشير الشعوب بالإنجيل وسائر بنى النشاط الرسولى..

* الفصل السابع: التعاون فى النشاط الإرسالى: صلاة وتضحيات من أجل المرسلين، «ها أنذا يا رب أنا مستعد، أرسلنى»، فى العطاء ما ليس فى الأخذ عن سعادة، أشكال جديدة من التعاون الإرسالى، تنشيط وتنشئة الرسالة لشعب الله، مسؤولية الأعمال الجدية والإرسالية الأولى، لا العطاء للرسالة فحسب بل القبول بها أيضا، الله يعد للإنجيل ربيعا جديدا.

* الفصل الثامن: روحانية الرسالة: لندع الروح يقودنا، نعيش سرّ المسيح المرسَل، نحب الكنيسة والبشر حب يسوع لهما، القديس هو المرسَل الحقيقى.

ولقد أسهبنا فى تفاصيل هذا الاستشهاد لنوضح كيف أن موقف نيافة البابا من الإسلام يتسم بالازدواجية أو هو فى الواقع يتسم بوجهين! فهو من ناحية ينادى بالحوار، لكنه من ناحية أخرى يؤكد كيف أن هذا الحوار لا يعنى سوى كسب الوقت حتى تتم عملية التنصير! بل إن إصراره الأكمه على أن المسيح هو المخلص الوحيد ومحاولته لفرض المسيحية على كافة الأمم يتضمن إلغاء الإسلام من الوجود هو والديانات الأخرى!. ومن الداعى للسخرية المريرة أن نقرأ فى البند رقم ٣٩ عبارة: «الكنيسة تعرض ولا تفرض شيئا: تحترم الأشخاص والثقافات وتتوقف أمام مذبح الضمير فإلى الذين يعارضون نشاطها الرسولى تكرر الكنيسة: افتحوا الأبواب للمسيح»!! فأى الجملتين يصدق القارئ؟!

والرسالة كلها تتناول موضوع التبشير وتنصير العالم. ففى المقدمة نطالع فى الفقرة (٣): «أن عدد الذين يجهلون المسيح ولا ينتمون إلى الكنيسة يزداد يوما بعد يوم، حتى إنه تضاعف منذ اختتام المجمع [أى منذ عام ١٩٦٥م] وأمام هذا العدد الكبير من البشر الذين أحبهم الأب ومن أجلهم أرسل ابنه، تبرز ضرورة الرسالة الملّحة... أستطيع القول: **إن الوقت قد حان لأن تلتزم كل القوى الكنسية فى التبشير الجديد بالإنجيل وفى الرسالة إلى الأمم. ما من أحد يؤمن بالمسيح وما من مؤسسة فى الكنيسة يمكنه أن يتنصّل من هذا الواجب الأسمى، واجب تبشير كل الأمم بالمسيح**».

ونطالع فى نهاية الفصل السادس: «لا يسعنى إلا أن أؤكد هذه الترتيبات الحكيمة: ففى سبيل انطلاقة جديدة للرسالة إلى الأمم لابد من مركز للتحريك والإدارة والتنسيق، وهذا المركز يتمثل فى مجمع التبشير بالإنجيل. إننى أدعو مجامع الأساقفة وأجهزتها والرؤساء العامين للرهبانيات والجمعيات والمؤسسات وأجهزة العلمانيين الملتزمين فى النشاط الإرسالى، إلى أن يسهموا بأمانة مع هذا المجمع المتمتع بالسلطة اللازمة لتنظيم وتوجيه النشاط والتعاون فى الرسالة على صعيد شامل... لهذه الغاية، على المجمع أن

يعقد علاقات وثيقة مع سائر مجامع الكرسى الرسولى، ومع الكنائس الخاصة ومع القوى الإرسالية. فبحسب علم الكنيسة وبوصفها شركة فالكنيسة كلها رسولية. لكن من المؤكد أيضا أن دعوات ومؤسسات متخصصة للعمل لدى الأمم هى دائما لا غنى عنها...».

وتجدر الإشارة هنا إلى عبارة «مؤسسات متخصصة» التى يرد شرح معناها فى مجلة «رسالة الكنيسة» العدد ٩١ الصادر فى مارس ١٩٩١م، وكله مخصص لشرح «رسالة الفادى» بأنها تعنى «المنظمات غير الحكومية». وهذا دليل قاطع على أن هذه المنظمات غير الحكومية تدخل من ضمن آليات عملية التبشير الحالية، والتى يحاول الغرب فرضها على العالم الإسلامى، وقد بدأت للأسف بعض الجرائد الرسمية تتحدث عنها توطئة لإقرار نشاطها!!

وتتنوع العبارات طوال الخطاب ومنها على سبيل المثال:

«أمام الرسالة إلى الأمم مهمة واسعة لم تقرب بعد بالتأكيد من نهايتها. بل بالعكس، إن من الناحية العددية مع النمو الديموغرافى، وإن من الناحية الاجتماعية والثقافية، مع ظهور أنماط جديدة من علاقات جديدة، وكذلك مع تغيرات الأوضاع فإنها تبدو معدة لآفاق أوسع. إن مهمة التبشير بيسوع المسيح إلى الشعوب تبدو واسعة وغير متناسبة مع القوى البشرية للكنيسة. تظهر الصعوبات وكأنها لا يمكن تخطيها، وقد كانت تدفع إلى اليأس لو أن الأمر كان متعلقا بالعمل البشرى وحده. إن بعض البلدان تمنع المرسلين من الدخول إليها، والبعض الآخر لا يحرم التبشير فقط، بل الاهتداءات وحتى أعمال العبادة المسيحية. فى أمكنة أخرى تكون الحواجز على صعيد ثقافى: يظهر نقل الرسالة الإنجيلية عديم الفائدة أو غير مفهوم، ويعتبر اهتداء المرء تخليا عن شعبه وثقافته».

وغنى عن القول أن عبارة «الاهتداء» هنا تعنى التنصير! ونواصل فى نفس الفصل الرابع:

«إن الرسالة إلى الأمم ليست إلا فى بدايتها. شعوب جديدة تدخل على المسرح العالمى ولها الحق هى أيضا فى أن تتلقى بشارة الخلاص. إن النمو الديموغرافى فى الجنوب والشرق فى البلدان غير المسيحية يرفع باستمرار عدد الأشخاص الذين يجهلون الفداء الذى حققه المسيح. **يجب توجيه الانتباه الرسولى نحو المساحات الجغرافية والأوساط الثقافية التى لا تزال بعيدة عن تأثير الإنجيل**».

ونقرأ فى الفصل السابع من نفس «رسالة الفادى»: «الناس الذين ينتظرون المسيح

لا يزالون فى أعداد لا تحصى: فالأوساط البشرية والثقافية التى لم تصل إليها بعد بشارة الإنجيل أو تلك التى يندر فيها حضور الكنيسة هى واسعة جدا، بحيث تستلزم توحيد كل القوى. إن الكنيسة كلها فى تأهبها للاحتفال بيوبيل السنة الألفين هى اليوم أيضا أكثر التزاما بانتظار ميلاد إرسالى جديد. علينا أن نغذى فينا الشوق الرسولى لننقل إلى الآخرين نور الإيمان وفرحه، وعلينا أن ننشئ على هذا المثال، شعب الله بأجمعه. لا يمكن أن يرتاح بالنا ونحن نفكر فى الملايين من إخوتنا وإخواننا الذين هم أيضا افتداهم المسيح بدمه وهم يعيشون جاهلين حب الله. قضية الرسالة بالنسبة إلى الفرد المسيحى كما بالنسبة إلى الكنيسة جمعاء يجب أن تحتل المكان الأول، لأنها تتعلق بمصير البشر الأبدى وتتجاوب مع قصد الله الخفى الرحيم».

أما فى الخاتمة فنقرأ: «وفى عشية الألف الثالثة، الكنيسة كلها مدعوة إلى أن تعزز عيشها سرّ المسيح بإسهامها بفعل النعمة فى عمل الخلاص... إننى أستودع الكنيسة، وخاصة الذين يتكرسون، لتحقيق وصية الرسالة فى عالم اليوم».

وإن كانت هذه الأمثلة لا تمثل إلا شذرات مما تتضمنه «رسالة الفادى» التى قال عنها نيافة البابا أنها تعبّر عن موقفه من الإسلام، فإنها دليل قاطع على ازدواجية هذا الموقف المتشدق بالمحبة والحوار من جهة ويقوم بالاقتلاع من جهة أخرى..

كما أن نفس هذا الموقف يكشف عن ذلك المخطط الذى بات مكشوفا، والذى تم اتخاذه فى المجمع الفاتيكانى المسكونى الثانى عام ١٩٦٥م، وأتى البابا يوحنا بولس الثانى ليتولى تنفيذه بالتضافر مع المخابرات المركزية الأمريكية والموساد، وهو: ضرب اليسار فى الثمانينيات، وضرب الإسلام فى التسعينيات، وتنصير العالم تحت لواء كاثوليكية روما عند بداية الألفية الثالثة! فهذا الخطاب، على حد قول الأب ريمون روسينيول «يمكن اعتباره بمثابة نداء من البابا لتجنيد الكنيسة بأسرها لمهمة التبشير».

وقبل أن ننتقل إلى النقطة الأخيرة من هذا البحث، وهى «الحوار» لا يسعنا إلا أن نسأل البابا عن ذلك التحالف السياسى الذى تم بينه وبين اليهود لضرب ما يطلقون عليه «العدو المشترك».. فلو افترضنا جدلا نجاح هذا المخطط ـ ونحن قطعا لا نؤمن ولا نتصور حدوثه فالله حق، ووعده حق، و«الدين عند الله الإسلام» ـ لكننا نقول: لو افترضنا جدلا نجاح هذا المخطط، هل يتصور نيافته أن اليهود سيغفرون أو حتى سينسون كل ما تعرضوا له من عمليات قهر وقمع وقتل وإبادة واقتلاع ومهانات وصب لعنات أسبوعية فى كل قداس أحد بكافة كنائس العالم.. و.. وإلخ. فقائمة ما عانوه من التعصب الكنسى جد طويلة.. هل يتصور نيافته أن كل ما اختزنه الوجدان العام

اليهودى على مدى ألفى عام، هل سيغفرونه للكنيسة بهذه البساطة؟! من وجهة نظر التعصب أو «الأصولية الغربية العمياء» لا نرى ـ فى حالة نجاح المخطط المزعوم ـ سوى أحد حلين: إما تنصير اليهود ـ الأمر الذى أصبح اليهود يدركونه ويتخذون الحيطة منه، ولذلك يعلنون فى مختلف المناسبات أنه لا جدوى من الحوار بينهما؛ وإما أن يقوم اليهود بالانتقام لكل ما عانوه من الكنيسة ـ العدو الأصلى فى نظرهم ـ وما أسهل ذلك خاصة بعد اختراق الصهيونية لأعتى قلاع التعصب الكنسى، ألا وهو: الفاتيكان!!

ولا نسوق هذا التساؤل إلا لنوضح لنيافة البابا أن محاولته المنبتة لاقتلاع الإسلام وتنصير العالم ليست إلا تعصب أكمه، سيؤدى إلى وقوع العالم فى مجازر لا نهاية لها. كما نقول لنيافته: إن الإسلام لا يعانى من عقدة الخلاص وليس بحاجة إلى التكفير عنها!!

٥ ـ الحوار

تحت العنوان الفرعى: «الحوار مع الإخوة من ديانات أخرى» من الفصل الخامس **لرسالة الفادى**، تلك الرسالة التى قال عنها البابا يوحنا بولس الثانى: إنها تتضمن رأيه وموقفه من الإسلام والمسلمين، نطالع ما يلى: «إن الحوار بين الديانات يشكّل جزءاً من رسالة الكنيسة التبشيرية. فهو باعتباره طريقة ووسيلة لمعرفة وإغناء متبادلين، لا يتعارض مع الرسالة إلى الأمم. إنه، بالعكس، مرتبط بها، بنوع خاص، وهو تعبير عنها». ذلك هو موقف نيافته من الإسلام الذى يعتبره من الديانات التى تحتوى على «**ثغرات وشوائب وأخطاء**».. مؤكدا «**بثبات على أن الخلاص يأتى من المسيح، وأن الحوار لا يعفى من التبشير بالإنجيل**» ... بل «**إن الكنيسة لا تعتبر أن هناك ثمة أى تناقض بين البشارة بالمسيح والحوار بين الديانات**»!

والنص ليس بحاجة إلى تفسير، فهو شديد الوضوح فى تحديد معنى الحوار فى نظر البابا، والذى لا يخرج عن كونه مجالا لمواصلة عملية التبشير وترسيخها...

ومن ناحية أخرى، نرى فى العديد من المراجع الحديثة الخاصة بالدراسات الدينية وتاريخها، عرضا لفكرة تضافر الغرس الثقافى. والتبشير أو مواكبتهما من خلال الحوار.. وإذا ما كانت القواميس توضح كيف أن الغرس الثقافى هو «ظاهرة تقوم بها جماعة أفراد من ثقافة معينة لإدخالها فى ثقافة مغايرة» فإن استخدام هذه العبارة فى مجال لقاء ديانتين يتحول إلى «وسائل تقبّل، وتفسير، وامتصاص، وتوافقات»..

ويوضح جوليان رييس فى كتابه عن «المسيحية بين الديانات» كيف أن ذلك يعنى بالنسبة لأتباع المسيحية الذين يقومون بهذه المهمة، أن يروا كيف يمكنهم التوفيق بين المعتقدات والشعائر والرموز المستخدمة فى ثقافتهم مع مثيلتها السائدة فى الديانة التى يحاولون امتصاصها والتى تتم ممارستها فى مجال ثقافى حضارى مختلف. ولقد أوضحت العديد من التجارب التاريخية ـ طوال عملية التبشير الكنسية ـ «كيف يقوم الشعب المراد تنصيره برفض الثقافة الغريبة الدخيلة، وإن كان نفس ذلك الشعب قد يتقبل المسيحية كديانة جديدة أو كوسيلة للحفاظ على الهوية الثقافية العرقية، وفى مثل هذه الحالة فإن الغرس الثقافى يتضمن فرض تقبّل عناصر جديدة على المسيحية تأثرا بالديانة الأخرى». الأمر الذى واجهته الكنيسة عند بداية تكوينها فى مواجهة العصر الهللينى واللاتينى، ثم واجهته أيام تبشير الغزاة الجرمان؛ وواجهته فى العصر الحديث أيام تبشيرها فى الصين والهند، الأمر الذى انعكس بوضوح على المسيحية وشعائرها

وأدى إلى خلق معركة الطقوس.

لذلك نرى البابا حريصا على التأكيد، فى خطابه الأخير، على ضرورة حماية أتباعه، ومنعهم من التأثر بعناصر من الديانات والعقائد الأخرى.. وفى نفس الوقت نرى المؤسسة الكنسية فى عهده - ومن قبله بكثير - حريصة على إدخال بعض أهم ملامح العناصر القائمة فى الديانات والعقائد الأخرى، والتى لا تمس صميم العقيدة بشكلها الحالى - وذلك من قبيل التقارب الشكلى وتسهيل عملية الامتصاص - بعد كسر أو تغليف الحواجز الأساسية..

وإذا كانت عبارة الغرس الثقافى من العبارات الحديثة، ولم تكن من الكلمات الواردة فى النصوص الكنسية، فقد استعملها البابا يوحنا بولس الثانى رسميا ولأول مرة فى عام ١٩٧٩م، فى إحدى عظاته الرسولية المعنونة «تبليغ التعليم الدينى» قائلا: «لقد أوضحت فى الآونة الأخيرة لأعضاء اللجنة الإنجيلية، أنه على الرغم من آن عبارة الغرس الثقافى من الكلمات المستحدثة إلا أنها تعبر تماما عن مكونات السر الأعظم للتجسد. إن التعليم الدينى مثله مثل التبشير، عليه أن يحمل قوة الإنجيل إلى قلب الثقافة والثقافات؛ لذلك يتعين على التعليم الدينى أن يبحث عن معرفة هذه الثقافات ومكوناتها الأساسية، وعليه أن يتعلم أهم تعبيراتها وأكثرها تأثيرا؛ وعليه أن يحترم قيمها وتراثها الخاص. بهذه الطريقة فحسب سيمكنه تقديم معرفة السر الخفى لهذه الثقافات ومساعدتها على أن تستنبت من تراثها الحى تعبيرات الحياة الأصلية لإقامة الشعائر والفكر المسيحى»،أى استغلال عملية الغرس الثقافى لمعرفة الثقافات المراد اختراقها للاستحواز على مفرداتها حتى لا تبدو عملية التنصير غريبة دخيلة على هذه الثقافة المحلية، ويواصل نيافته فى نفس الموعظة قائلا: «إن رسالة البشارة متضمنة فى الثقافة الإنجيلية التى لا يجب أن تنفصل عنها. إنها تنتقل عبر حوار رسولى متضمن بالضرورة فى حوار ثقافى بعينه. إن قوة الإنجيل قادرة على التغيير والتجديد؛ لذلك لا يجب أن يتغير الإنجيل أو يتأثر عند اتصاله بالثقافات؛ وعندئذ فإن التعليم الدينى سيتأصل فى مختلف الثقافات، ويضفى كمال المسيح على قيمها الشرعية».

وأوضح ما يخرج به القارئ من هذا النص، على حد قول س. ديلاكروا فى كتابه عن «الكنيسة الكاثوليكية فى مواجهة العالم غير المسيحى»: «إن الكنيسة باتت مصرة على تحديد رسالتها المعينة، وهى: غرس الإنجيل فى كافة الثقافات»...

وإذا ما كانت نصوص المجمع المسكونى الفاتيكانى الثانى كلها لم تستخدم عبارة الغرس الثقافى - إذ لم تكن متداولة فيها آنذاك - أى فى منتصف الستينات، فـإن كلمـة

«الحوار» تعد من كلمات هذا المجمع، إذ أنها وردت فى نصوصه أكثر من أربعين مرة، سواء أكان الأمر يتعلق «بالحوار الأخوى» مع اليهود، أم بالحوار «الأمين والحريص» مع أتباع العقائد والديانات الأخرى.. وتعد الفقرة التالية الواردة فى بيان «إلى الأمم» من أوضح وأهم الفقرات، لكل ما تحمله من مغزى واضح المعالم: «إن الممارسة المنتظمة والمنظمة للنشاط الإرسالى، تتطلب من العاملين المبشرين أن يستعدوا علميا لمهمتهم، خاصة فيما يتعلق بالحوار مع الديانات والثقافات غير المسيحية... لذلك نود - لصالح الإرساليات التبشيرية - أن يتم التعاون أخويا وبإسهاب بينهم وبين مختلف المؤسسات التى تقوم بتنمية رسالة التبشير... وعلم الأجناس واللغويات، والتاريخ وعلم الديانات...» وكلها أصبحت تمثل منافذ جديدة لاختراق المجتمعات الإسلامية.

ومرة أخرى نرى كيف تحولت المؤسسة الكنسية فى موقفها من العلوم الحديثة، فبعد أن أدانتها برمتها وحاربت وحرمت القائلين بها لكشفهم ما اقترفته من تحريف، راحت تستعين بها، وبخاصة بتلك التى يمكنها أن تعاونها فى مواصلة تعصبها وغرس عقيدتها المحرّفة فى المجتمعات الأخرى..

وكلمة الحوار من المفردات التى دخلت اللغة الفرنسية فى القرن السادس عشر، وبالتحديد في عام ١٥٨٠م، وتعنى تبادل وجهات النظر بين طرفين.. أى أنه تبادل قائم على الأخذ والعطاء وعلى التغيير والمجازفة - إذ أن كلا من الطرفين يكون عرضة لتغيير موقفه، إلا أن التعصب الكنسى لا يأخذ بهذا المفهوم، ويستعين بالحوار كذريعة لكسب الوقت بغية التسلل بلا مقاومة تذكر، وذلك بعد إعادة قراءة التراث الكنسى على ضوء مفاهيم الديانات الأخرى بحثا عن مداخل جديدة، أو عن أرضيات مشتركة يمكن استخدامها كمعابر؛ لأن علم اللاهوت الحديث يواجه بالعديد من المجالات التى يسعى إلى السيطرة عليها واستغلالها لصالحه، ومنها: مجالات التنمية، والعدالة الاجتماعية، والحرب والسلام على الصعيد العالمى، ولقاء الثقافات عبر المعايشة اليومية أو الغزوات، والإلحاد المناضل ضد انحرافات الكنيسة، والتقارب بين العقائد المسيحية الأخرى، وذلك إلى جانب ما يواجهه من تكوين علوم دينية فى العالم الثالث، ونظريات تحررية أو نظريات ومعتقدات قائمة فى مختلف الثقافات..

وإذا ما تابعنا رأى البابا فى النص العربى الصادر عن مجمع الكنائس الشرقية، لخطاب رسولى آخر خاص «بشأن المصالحة والتوبة فى رسالة الكنيسة اليوم»، المكون من ثلاثة أقسام، وكل منها مكون من عدة فصول؛ لوجدنا فى الفصل الأول من القسم الثالث بنداً خاصا بالحوار نطالع فيه نفس ذلك الرأى الذى لم يتغير فى كافة الخطب،

ومنها :

«إن الحوار بالنسبة إلى الكنيسة هو ـ نوعا ما ـ أداة، وعلى الأخص، طريقة للقيام بعملها فى عالم اليوم. . . (وهو) إنارة الكون كله ببشارة الإنجيل وتوحيد البشر بروح واحد. . . وفى الواقع **أن الكنيسة تستعمل طريقة الحوار لكى تحسن حمل الناس** ـ سواء أكانوا يعرفون أنفسهم أنهم أعضاء الجماعة المسيحية بالعماد والاعتراف بالإيمان أم هم غرباء عنها ـ **على الارتداد والتوبة**، عن طريق تجديد ضميرهم وحياتهم تجديدا عميقا فى ضوء سر الفداء والخلاص. . . إن الحوار الصحيح يرمى إذن، بادئ بدء، إلى تجديد كل الناس بالارتداد الباطنى والتوبة مع احترام كل الضمائر». . .

ولا يوجد وضوح أكثر من هذا فى تعريف البابا لمفهومه عن الحوار الذى هو بمثابة أداة تدفع الناس إلى الارتداد، والتوبة هنا تعنى التخلى عن الدين الأصلى واعتناق المسيحية! وهنا أيضا نرى التناقض واللعب بالألفاظ فكيف يدفع الناس إلى الارتداد وكيف يحترم ضمائرهم؟!

ونتابع فى نفس ذلك البند: «وتشجع الكنيسة، على الأخص، الحوار المسكونى، أى الحوار بين الكنائس. . . والحوار مع سائر جماعات الناس الذين يبحثون عن الله ويتوقون إلى إقامة علاقة اتحاد معه. وفى أساس مثل هذا الحوار مع الكنائس والجماعات المسيحية والديانات الأخرى، يجب أن يكون هناك جهد صادق. . . لإقامة حوار مثمر ومتجدد داخل الكنيسة الكاثوليكية عينها. . . إن الكنيسة الكاثوليكية بجميع فئاتها تسير بصدق فى طريق الحوار المسكونى. . . وإن القواعد الأساسية التى تحاول اتّباعها فى هذا الحوار هى التأكيد أن المسكونية الروحية فقط تفسح المجال للاستجابة بإخلاص وجدية لمقتضيات العمل المسكونى». ومن الواضح هنا وفى بقية هذه الفقرة أنه يهمش أو يتجنب الخلافات التى مزقت المسيحية، ويقوم بالتركيز على ما يبدو من نقاط مشتركة بعيدا عن الخلافات العقائدية!

ثم يوضح نيافة البابا كيف أن حوار المصالحة هذا الذى يعتبره «معقد ودقيق»: «تلتزم به الكنيسة على الأخص من خلال نشاط الكرسى الرسولى وأجهزته المختلفة. ويمكن القول: **إن الكرسى الرسولى يسعى إلى التدخل لدى حكام الشعوب والمسؤولين عن مختلف المحافل الدولية، أو الانضمام إليهم بمحاورتهم أو حضهم على الحوار لمصلحة المصالحة وسط صراعات عديدة**». الأمر الذى يكشف بلا مواربة تدخل نيافته فى الشؤون السياسية وتوجيهها لصالح مخططه، وذلك «من خلال الأساقفة. . . والعلمانيين الذين يتخذون ميدانا لنشاطهم الخاص بالتبشير بالإنجيل، وعالم السياسة

والاجتماع والاقتصاد الواسع المعقد والحياة الدولية» وهو ما يوضح اهتمامه بالتنمية وبكافة المجالات الأخرى مستعينا بالمنظمات غير الحكومية. .

ويختتم البابا هذا البند من خطاب المصالحة قائلا: «**إن تجديد القلوب عن طريق الارتداد والتوبة هما إذن الفرضية الأساسية والقاعدة الثابتة اللتان يرتكز إليهما كل تجديد اجتماعى طويل الأمد والسلام بين الأمم**». . . إن الحوار «لا يمكن أن ينطلق أبدا من موقف لا مبالاة تجاه الحقيقة، لكنه يقوم بالأحرى بعرض هذه الحقيقة بهدوء ونفس طيبة تحترم أفهام الآخرين وضمائرهم. ولا يمكن لحوار المصالحة على الإطلاق أن يقوم مقام إعلان الحقيقة الإنجيلية أو أن يخفف منها. **وحقيقة الإنجيل ترمى إلى ارتداد الخاطئ والاتحاد بالسيد المسيح**»!!

أما فى خطابه الأخير والمسمى «روعة الحقيقة» فيقول البابا عن اللقاء بين الأشخاص فى زمننا: «إنه يتضمن ضرورة العثور على المبررات العقلانية المتزايدة التماسك أو الأكثر تجانسا لتبرير المتطلبات ووضع معايير الحياة الأخلاقية. . . إنه بحث يوازى متطلبات الحوار والتعاون مع غير الكاثوليك ومع غير المؤمنين خاصة فى المجتمعات التعددية».

وأوضح ما يخرج به القارئ من هذا النص إدراك نيافة البابا فى أعمق أعماقه أن ما يبشر به من مسيحية - بشكلها الحالى - عبارة عن موضوع غير منطقى ولا يقبله العقل، لذلك نراه يبحث عن مبررات متماسكة أو متجانسة ليقنع بها المراد تبشيرهم أو المراد استعادتهم إلى قطيع الكاثوليكية.

ومن السخرية أن نقرأ تعليق الأب جاك جوليان على هذه الفقرة، فى مقدمته لطبعة نفس هذا الخطاب فى دار نشر سنتوريون الفرنسية، قائلا: «إن هذا التصريح ليس تهديدا لغير المسيحيين»! فإن لم يكن كل ما تقدم بما فيه تلك الفقرة لا يمثل تهديدا للإسلام والمسلمين فما الذى عساه يمثله؟!

وتستمر اللعبة مع مرور الأيام، فها هو البابا يعلن موجها نداءه إلى أساقفة إفريقيا مطالبا إياهم بالحوار مع المسلمين. فقد أعلنت وكالات الأنباء يوم ١٤/٣/١٩٩٤م النبأ التالى: «دعا البابا يوحنا بولس الثانى بابا الفاتيكان أمس لتشجيع الحوار مع الإسلام والمسلمين. طالب البابا مجمع الأساقفة الأفارقة الذى يعقد فى الشهر القادم بالدخول فى حوار مع الإسلام. أكد البابا عدم إمكانية تصور حياة الكنيسة بعيدا عن الحوار مع أبناء الديانات الأخرى، وحث أساقفة إفريقيا على بسلوك هذا الاتجاه خاصة مع الإسلام لوجود صلات بين الجانبين».

وإذا ما كان الحوار يعنى كما طالعنا فى الصفحات السابقة أنه عبارة عن غطاء لعمليات التسلل فى كافة المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والدينية، وها هو البابا يوجه تعليماته إلى أساقفة القارة الإفريقية ليحملوا سلاح الحوار. . ، فهنا لا يسعنا إلا أن نتوجه إلى الحكام والعلماء ورجال الدين فى العالم الإسلامى ـ وبخاصة أولئك الذين يشتركون فى التمثيلية المسماة: «الحوار مع الديانات غير المسيحية» التى يقودها الفاتيكان، آن يضعوا فى الاعتبار هذا المعنى الواضح للحوار، الذى يتزعمه البابا يوحنا بولس الثانى لا بتحريك الكنائس التابعة له ولكافة الكنائس المحلية حتى للأقليات المسيحية، وإنما بتحريك مختلف آليات السياسة الدولية الغربية. .

إننا نتوجه إلى رجال العالم الإسلامى ـ أينما كانوا ـ أن يغضوا الطرف عن خلافاتهم المفتعلة، وأن يكفوا عن التواطؤ بالصمت أو بالمشاركة الفعلية، أن يكفوا عن تخاذلهم وسلبيتهم ليوحدوا صفوفهم دفاعا عن حياتهم ودفاعاً عن الإسلام، فنحن الآن فعلا فى رحى حرب صليبية يريدونها كاسحة، وأكثر ضراوة من تلك الحروب السابقة التى كانت تتسم بشجاعة المواجهة. . إنها حرب صليبية قائمة على الغش والخداع والتسلل تحت زعم الحوار، مستعينة بكافة الوسائل والضغوط السياسية والاقتصادية والثقافية، بل ومستعينة بكل أسف بأخطر الأسلحة وأكثرها فتكا، وهى: ضرب الإسلام بأيدى المسلمين!

فإلى الذين يغوصون فى الاستسلام بدرجة تستفز العقل والضمير، وإلى الذين يساعدون على اختراق الأمة العربية والإسلامية، وإلى تمييع القضايا وخلط الأوراق تحت زعم الحوار والسلام، لا يسعنا إلا أن نقول: اتقوا الله فى أنفسكم وفى دينكم الذى تساعدون على اقتلاعه!

خاتمة

ما من إنسان يجهل اليوم أن العالم يمر بأزمة مصيرية طاحنة، وما من إنسان يجهل أن أهم محاورها هى: الدين، والسياسة، والاقتصاد.

وتتسم هذه الأزمة بظاهرة قديمة متواصلة، وإن كانت قد تفاقمت فى الآونة الأخيرة لتكشف عن واقع قائم على الظلم الغائر فى كافة المواقف والقضايا المتعلقة بالعالم الثالث، وبوجود الكيان الصهيونى فى فلسطين المحتلة ـ مما أدى إلى اختلاق تعبير «الكيل بمكيالين والقياس بمقياسين»!

والهدف من وراء هذه الأزمة هو إقامة عصر المغالطة الكبرى، أى: عصر النظام الدولى الواحد ـ تحت سيادة الولايات المتحدة؛ وعصر النظام الدينى الواحد ـ تحت سيادة الفاتيكان.

ومن خلال هذا الموقف العالمى الناجم عن أنانية همجية وعلاقات دولية يحكمها قانون الغابة، ينساق محركو اللعبة فى شراسة محمومة لتنفيذ ما يطلقون عليه: «إعادة ترتيب العالم» و«إعادة تنصير العالم». . وكأن هذا العالم ملكية خاصة لتلك الحفنة، أو كأنه كان مسيحيا ثم حاد عن عقيدته، وأصبح لزاما على نيافة البابا أن يطلق تلك الصيحة الصليبية الجائرة، عام ١٩٨٢م، مطالبا بـ «إعادة تنصير العالم» ـ مستعيناً بكافة أتباعه، «من أكبر أسقف إلى آخر علمانى»، زاعما امتلاكه هذا الحق بموجب التعميد الذى حصلوا عليه وربطهم بسر السيد المسيح!!

وعملية إعادة الترتيب وإعادة التنصير هذه، تتم من خلال موقف استعمارى جديد، تتحد فيه التيارات المتطرفة فى كل من السلطة السياسية الأمريكية والسلطة الدينية الفاتيكانية، مستعينين بكافة الوسائل المعلنة والخفية، المشروعة وغير المشروعة، من دسائس وفرض للإرهاب، والاختراق، والضغط على الرؤساء والحكومات ـ على حد قول البابا وتصريحات كبار الساسة فى الغرب ـ وذلك بغية استعمار مناطق مصادر الموارد الطبيعية للطاقة والسيطرة عليها، واستغلال وامتصاص أو نهب بقية الطاقات الطبيعية والبشرية، مع العمل على تزايد الهاوية بين قلة متحكمة، تمتلك أعلى الإمكانيات إلى حد البذخ المعتوه، وغالبية خاضعة مطحونة، يحاصرها الجوع والجهل وأعتى درجات الفاقة حتى الموت. . .

وإن كان هذا الموقف الاستعمارى الإمبريالى ليس بجديد؛ لأنه مستمر متواصل منذ

خمسة قرون تقريبا، إلا أنه يعكس حاليا تضافر جهود ثالوث التطرف الكائن فى كل من المخابرات المركزية الأمريكية، ودولة الفاتيكان، والموساد ـ حتى أصبح من الحق أن نطلق عليه عبارة «إمبراطورية الشر».. تلك العبارة التى أطلقوها على الاتحاد السوفيتى وتذرعوا بها لهدمه!

غير أن التاريخ يذخر بالوقائع الشاهدة على أن عمليات القهر والاستبداد وتمييع القضايا وخلط الحقائق وتزييفها، حتى وإن نجح فى مكان ما، أوفى حقبة ما، إلا أنه لا يؤدى إلى حل الأزمات، وإنما إلى تفاقمها بسبب ردود الأفعال الناجمة عنها من ناحية، وبسبب نمو وتطور الرأى العام واكتشافه للحقائق رغم القمع والتحايل..

ومن خلال هذه الرؤية الخارجية العامة لفرض التبعية السياسية والدينية فى قبضة لا فكاك منها، بحجة تفوق الرجل الغربى الأبيض وتفوق كاثوليكيته، تتدرج رؤى تالية، تكشف عن شبكة متداخلة شديدة التعقيد، من الأزمات التى يعانى منها الغرب فى كافة بنياته ـ وإن كان من الممكن أن نطلق عليها بصفة عامة أنها أزمة ذات شقين أساسيين: أزمة إفلاس حضارى من جهة، وأزمة إفلاس دينى من جهة أخرى ـ أى أن الغرب برمته فى حالة تأزم انهيارى مع نفسه ومع عقيدته، وفى حالة صراع تنهش أحشاءه بعنف وحدة لم يعرفهما من قبل، بل وصفها البعض بأنها على وشك القضاء عليه.. وهو ما يتضح من النقطتين التاليتين:

الإفلاس الحضارى:

على الرغم من كل ما أنجزه الغرب من تقدم علمى وتقنى قد يفوق الوصف والخيال إلا أنه يفتقد إلى أهم القيم فى الوجود، وهى: الإنسانية.. الإنسانية التى تمثل أهم الروابط بين البشر وكل ما بها من أخلاق ومثل عليا.. إلى جانب تمزقه الروحى، واضطرابه الأخلاقى من تفشى الجرائم، والإدمان، والاختطاف، والاغتصاب، والشذوذ الجنسى، والشعور باليأس والضياع إلى درجة الانتحار، ومعاناته من الأمية، والتفرقة العنصرية والاضطهاد، وجنوحه فى اختراع كافة وسائل التدمير العسكرية والشهوانية والإرهابية..

وهى الصورة التى تناولها بالكشف والإدانة العديد من الأمناء، منهم المفكر الفرنسى ألكسيس كاريل، أستاذ علم النفس الذى أمضى حياته فى دراسة كافة المجالات المتعلقة بالإنسان، لذلك أهدى مؤلفه المعنون «الإنسان، ذلك المجهول» إلى: «... كل الذين يودون اليوم الهرب من عبودية العقائد فى المجتمع الحديث.... وإلى أولئك الشجعان الجسورين الذين يدركون ضرورة التغيير السياسى والاجتماعى، بل وضرورة

قلب الحضارة الصناعية وضرورة إيجاد مفهوم آخر لتقدم البشرية»!

ويجمع كل هؤلاء الأمناء على فساد المجتمع الغربى وعلى أن حضارته قد وصلت إلى نهاية المطاف حتى أصبحت صيحتهم واحدة، قائلين: «كيف نتخلص من حضارة الغرب؟» وذلك، على حد قول كاريل: «لأن الحضارة العصرية لا تلائم الإنسان كإنسان. . . إننا قوم تعساء لأننا ننحط أخلاقيا وعقليا. . . إن الجماعات والأمم التى بلغت فيها الحضارة ذروة النمو والتقدم، هى الآخذة فى الضعف، والتى ستكون عودتها إلى الهمجية والوحشية أسرع من سواها. . . إن العلم والتكنولوجيا ليسا مسؤولين عن حالة الإنسان الراهنة، وإنما نحن المسؤولون، لأننا لم نميِّز بين الممنوع والمباح. . . يجب علينا أن نعيد إنشاء الإنسان من جديد فى كامل شخصيته ـ ذلك الإنسان الذى أضعفته الحياة العصرية ومقاييسها». . .

الإفلاس الدينى:

ومن أهم معالم هذا الإفلاس الدينى فقدانه لمصداقية عقيدة الإيمان، إلى درجة دفعت الكنيسة الهولندية إلى إسقاطها أو إغفال ذكرها من كتابها الجديد للتعليم الدينى عام ١٩٦٦م. الأمر الذى أدى إلى تباعد الأتباع بل وإلى تباعد نفس رجال الإكليروس بنسب تتراوح من ٣٠ إلى ٧٠٪ فى بعض البلدان حتى أطلقوا عليها عبارة «النزيف الصامت»! مما أوجد أزمة متشعبة الأبعاد، دفعت المؤسسة الكنسية فى روما إلى التورط والتخبط لإنقاذ وجودها، وهى الأزمة التى تتضمن من ضمن ما تحتوى عليه: ثبوت أن العقيدة الحالية غير منزلّه، ومعاناة رجال الكنيسة من فرض التبتل، مما أدى إلى وجود نسب جد مزعجة من اللواطيين والسحاقيات وتفشى مرض الإيذر بينهم؛ وأزمة الطاعة؛ وإدانة مصداقية البابا ومعصوميته من الخطأ؛ ورفض فكرة توحيد الكنائس ورفض تحريم استخدام وسائل منع الحمل ومنع الإجهاض، ورفض فكرة الاعتراف، والمناولة، والقداس الأسبوعى وخاصة باللغة اللاتينية، وفكرة الخلاص وخطيئة آدم، والتعميد، لكى لا نقول شيئا عن الخلافات والأزمات العقائدية بين المذاهب المسيحية، بالإضافة إلى رفض تدخل الكنيسة فى الشؤون السياسية، وموقفها المتناقض من اليهود عقائديا ومن كيانهم الصهيونى الاستيطانى فى فلسطين المحتلة ـ الأمر الذى أدى إلى تناقض أقوال البابا يوحنا بولس الثانى بلا تحرج وكأن الأمر لا يمس كيانه أو كرامته!

ولم نذكر من مظاهر هذا الإفلاس المزدوج إلا القليل. . .

ومن جهة أخرى، إذا ما نظرنا إجمالا إلى الموقف من الناحية الحضارية، لوجدنا أن حضارة الغرب اللاهثة خلف سراب التقدم المادى، وحمى التغيير والتجديد، تبدو

كنغمة نشاز فى تاريخ الحضارات ـ خاصة إذا ما تأملنا الحضارات الشرقية بأنواعها وقارناها بها. فهى على حد قول المفكر الفرنسى رنيه جينون: «الحضارة الوحيدة التى تطورت فى الاتجاه المادى فقط... وأغرب ما فى الموضوع هو ادعاء ضرورة فرض هذه الحضارة غير الطبيعية نمطا لكل الحضارات الحالية، وأن يُنظر إليها على أنها النموذج المثالى للحضارة، بل يُنظر إليها على أنها الوحيدة ـ دونا عن بقية الحضارات ـ التى تستحق هذا الاسم... فمنذ عصر النهضة اعتاد الغربيون على اعتبار أنفسهم ورثة الحضارة اليونانية الرومانية ومكمليها، متجاهلين وناكرين كل ما عداها... إنها حضارة تتسم بغياب تام للمعرفة الروحية وبازدهار أهوج للمعرفة العلمية المادية» **(الشرق والغرب)**.

ويؤكد وجهة نظر رنيه جينون هذه عملية التحريف الأساسية التى بدأت بجعل السيد المسيح يونانيا لاتينيا، ومحاولة بتر حقيقة أن هذه الحضارة اليونانية الرومانية قد قامت على إنجازات الحضارة المصرية القديمة، وذلك لاستبعاد الأصول الدينية المأخوذة عنها والثابتة تاريخيا، كما تؤكد من ناحية أخرى الإصرار على مواصلة هذا الموقف وتكراره من الحضارة الإسلامية، مع محاولة تشويهها لاستبعاد حقيقة أن حضارة الغرب الحالية قامت على امتداد الحضارة المصرية القديمة وعلى إشعاع الحضارة الإسلامية.

ويتعرض رنيه جينون ببصيرته الثاقبة إلى ما ينطبق على الوضع الراهن، فكتابه يرجع إلى عام ١٩٤٧م، قائلا: «إن الغربيين، رغم تقديرهم الشديد لذاتهم ولحضارتهم، إلا أنهم يشعرون تماما بأن سيطرتهم على بقية العالم أبعد ما تكون عن السيطرة النهائية، بل إنها تحت رحمة الأحداث التى لا يمكنهم التنبؤ بها وبالتالى لا يمكنهم منع حدوثها» ـ ولعل ذلك يفسر التضافر الحالى لإمبراطورية الشر!!

ومما لا شك فيه أن تضخم الشعور بالذات القائم على الزيف والمغالطة، ناجم عن الإحساس بالنقص الحضارى المتزن، وخاصة فى الولايات المتحدة الأمريكية الضحلة الجذور.. وقد أشار رنيه جينون إلى ذلك ببساطة قائلا: «إن الغرب ينسى أنه لم يكن له أى وجود تاريخى فى الفترة التى كانت فيها الحضارات الشرقية قد وصلت إلى قمة ازدهارها؛ لذلك يبدو الغرب بادعاءاته فى نظر الشرقيين كطفل فخور بحصوله سريعا على بضعة معلومات بدائية، متصوراً أنه امتلك المعرفة بأسرها ويريد تعليمها لناس متقدمين فى السن، تملؤهم الحكمة والتجارب».

ولا شك فى أن اختلاف وجهات النظر له تأثيره الجوهرى، فالغرب القائم على المادة والتقدم المادى الأهوج، الذى يجهل العلوم الروحية الحقيقية التى تمثل «المعرفة» فى

الشرق، وينظر إلى الثبات والاستقرار على أنه جمود وتخلف، ولا يدرك الفرق بين الاستقرار والجمود، لابد وأن يتخلى عن سياسته الاستعمارية الاستفزازية، وأن يتخلى عن عملية الاستحواذ والامتصاص واقتلاع الهوية والغرس الثقافى لمفاهيمه وعقيدته وعن كل ما يقوم به من تصرفات تدميرية.. فعلى حد قول روجيه جارودى بأن الصراع ضد الأصولية والإرهاب «لا يمكن أن يبدأ بموقف الغرب المتعصب وباكتفائه بذاته وانغلاقه على نفسه اعتمادا على ثقته فى ثقافته التى يزعم تفردها، وبأنها وحدها هى التى ذات قيمة، وبأنها وحدها ذات قيمة عالمية، مع استبعاد أية ثقافة أخرى... ففيما يتعلق بنا، نحن الغربيين، سواء أكنا علمانيين أم مسيحيين متدينين أم ماركسين، فإن الصراع ضد التصلب يجب أن يبدأ بنقدنا الذاتى، وبأن ندرك تصلبنا ومزاعمنا الاستعمارية التى تجعلنا نتصور أنفسنا سادة العالم، وعلينا أن نضع حضارتنا الذاتية فى إطار الثقافات الأخرى فى العالم لا بغية امتصاص الآخرين ولا حتى بغية مجرد تحمل وجودهم، وإنما لتقبل الحوار الحقيقى القائم يقينا على أن كلنا علينا أن نتعلم من بعضنا بعضا. فموقف الإثراء المتبادل وحده هو الذى يمكنه الإجابة على احتياجات العالم الذى لم يعد من الممكن أن ننظر إليه إلا على أنه وحدة واحدة على كافة المستويات الاقتصادية والبيئية والاستقرار والثقافة والإيمان. إننا سنقود أنفسنا جميعا إلى الضياع أو سنُنْقَذ جميعا معاً **(الأصوليات)**.

وهنا لا يسعنا إلا أن نضم صوتنا إلى كل تلك الأصوات الأمينة فى الغرب، والتى تمثل بصيص الضوء والأمل فى ظلمه وظلماته.. تلك الأصوات التى تعرف الحقيقة وتجاهر بها دفاعا عن حق كافة الشعوب فى أن تحيا بنفس الحقوق والقوانين وبنفس الضمانات، وأن تمارس عقيدتها بحريتها.

الأمر الذى يتطلب من الغرب بسلطتيه ـ لكى لا نقول من «إمبراطورية الشر» ـ أن يراجع نفسه ويغير من موقفه، فهو الذى أجرم فى حق الشرق ودأب على نهبه والعمل على تخلفه، مثلما دأب على تشويه الإسلام ومحاولة تحويره وتحريفه.. وبدلا من دفع كافة الموازين لصالح الغرب، يتعيّن عليه أن يأخذ المبادرة الحقيقية لفهم الشرق وتسديد كل ما يدين له به نهباً منذ خمسة قرون، والعملَ على النهوض بكل ذلك القطاع البشرى الذى فرض عليه التبعية والفاقة والجهل إلى درجة الإبادة والاقتلاع... وبدلا من تلك النظرة البغيضة المتعالية وذلك الموقف الانفصالى بزعم السيادة والتفرد، على الغرب أن ينظر إلى واقع الأمر نظرة تكاملية وليس بمفهوم الأضداد، عليه أن يدرك أن الليل ليس مجرد عكس النهار، وإنما أن يعى أنهما ـ بكل ما بهما من تضاد شكلى أو

من اختلاف يكونان يوما واحدا. . هذه هى النظرة التكاملية. . فبدلا من استبعاد الآخر وفرض النمطية، على قادة الغرب أن يدركوا أن الله عز وجل قد خلق الشعوب مختلفة الأجناس والألوان لتتعارف ولتتعاون من أجل الرقى العام وتطور البشرية جمعاء. .

فبدلا من استخدام الحوار قناعا ووسيلة « لفرض الارتداد واعتناق المسيحية» قهرا وقمعا أو قتلا، ليكن الحوار نافذة من نور لتنمو وتزدهر من خلاله كافة الحضارات وكل الديانات التوحيدية وغير التوحيدية.

إن ما يتهدد العالم من مشاكل وكوارث طبيعية أو بيئية مؤدية إلى نقصان موارد الطاقة والغذاء، بل ونقصان المياه الصالحة للشرب والرى - إن كل ذلك والكثير غيره بحاجة إلى تكثيف الجهود لا من أجل السيطرة وفرض النظام السياسى الواحد والنظام الدينى الواحد، بكل ما بهما من جبروت ومغالطات، وإنما بحاجة إلى تضافر كافة الجهود وفقا لما أنزله الله سبحانه وتعالى من تعاليم حنيفة قائمة على العدل، وتحث على التعاون والحب والعطاء من خلال العمل البناء. .

ولكى يكون الحوار مضيئا، هادفاً وبناءً، على الغرب بسلطتيه السياسية والكنسية، أن يكف عن حياكة المؤامرات واختراق البلدان والشعوب، وإخضاع الحكومات ببنوكه وصناديقه الدولية، والالتزام بحقوق الإنسان للجميع بلا تفرقة وبلا تمييز. .

على الغرب بسلطتيه وخاصة الكرسى الرسولى أن يقوم بتطبيق ما يتغنى به من شعارات حول «روعة الحقيقة»، وبدلا من أن يبدو البابا بوجهين، وبدلا من التلاعب بالديناميت، عليه أن يعلن حقائق التحريف والتبديل التى تمت فى العقيدة وفى الإنجيل بعهديه، منذ وفاة السيد المسيح حتى يومنا هذا. . فليس المطلوب من أحد أن يغير دينه وإنما كل ما نطالب به هو أن تُعلن وتتجلى الحقيقة بكل روعتها «الحقيقية» وليست تلك «المنسوجة» عبر المجامع أو المؤتمرات. .

لذلك نضم صوتنا إلى كل الذين يطالبون نيافته بـ:

* الاعتراف بالسيد المسيح نبيا من الأنبياء - وهو ما تؤكده وثائق قمران وغيرها إلى جانب نفس أقوال السيد المسيح.

* الاعتراف بإنجيل برنابا النبى المختار الذى تم استبعاده لمخالفته تيار التعصب، خاصة وأن البابا يستشهد بآيات منه تتفق وأغراضه!!

* الاعتراف بإسماعيل الابن الأكبر لسيدنا إبراهيم، والكف عن استبعاده كابن سفاح، فهو «الذبيح»، وهو الذى تم العهد فى صباه قبل أن يولد إسحاق، وهو جد

العرب أجمعين.

* الاعتراف بالإسلام بدلا من مواصلة تشويهه ومحاولة اقتلاعه.

* الاعتراف بسيدنا محمد خاتم المرسلين، فقد أتى الوحى فى سيناء، ولاح فى سعير وتلألأ فى فاران. وهو القول الثابت فى الإنجيل بالعهد القديم، أى أن الوحى بالرسالة التوحيدية أتى فى سيناء على يد موسى، ولاح فى جبال سعير قرب القدس على يد عيسى ابن مريم، وتلألأ فى فاران أى فى جبال مكة على يد سيدنا محمد ﷺ. . ولا نعتقد أن هناك وضوحا أكثر من ذلك. .

* الحد من تحريف ترجمة معانى القرآن الذى أنزله الله وحيا وحفظه.

* الحد من تصدير الإرهاب على الساحة العالمية ووصم المناضلين المدافعين عن حقوقهم وبخاصة وصم المسلمين، واتخاذها ذريعة لضربهم من الداخل وبأيادى مسلمة، ولتخويف المجتمعات من الحكم الإسلامى!

* نزع رأس الحربة التى غرسها الغرب الصهيونى فى قلب الشرق الأوسط فى فلسطين المحتلة، وإعادتها إلى أهلها فلا يوجد فى الإنجيل بعهديه أى دليل على حق اليهود فيها، فما من وعد إلا وكان مشروطا، وما من وعد إلا وحنثوه، وبالتالى فلا حق لهم فى هذه الأرض.

فإذا ما نظرنا إلى الديانات التوحيدية الثلاث نظرة موضوعية شديدة التجريد لأمكن القول: إن اليهودية الممثلة فى الوصايا العشر ديانة توحيد وتشريع، وحينما انحرف أتباعها أتى السيد المسيح مكملا وغير ناقض للناموس، فهو ـ على حد قوله ـ لم يرسل إلا إلى خراف إسرائيل الضالة. . وحينما انحرف الأتباع أتى الإسلام متضمنا التوحيد والتشريع، معترفا بما سبقه من عقائد وكاشفا لما تم بها من تحريف. . لذلك أتى متضمنا وعد الله عز وجل بأن يحفظه. . فهو الديانة التوحيدية الوحيدة التى تكفل الله بحفظ قرآنها قائلا: ﴿**إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون**﴾ [الحجر: ٩].

إن روعة الحقيقة ـ يا نيافة البابا ـ تكمن فى أنها لابد أن تتجلى مهما طالت وامتدت محاولات التلاعب والتعتيم. . فبدلا من التواطؤ مع الصهيونية لشن حرب صليبية سرطانية ـ معلنة وخفية ـ لاقتلاع الإسلام، عليك بالرجوع إلى أقبية الأرشيف السرى للفاتيكان، وإلى نصوصه المحجبة لتواصل رسالة السيد المسيح وتقود «خراف إسرائيل الضالة» إلى حظيرة الإيمان بالتوحيد. . أى أن تقوم بتصويب كل ما تم فى اليهودية والمسيحية من تحريف بدلا من التمادى فى الابتعاد عن الحقيقة لاقتلاع

الإسلام..

وفى ختام هذا البحث لا نملك إلا أن نتوجه إلى كافة المسلمين أينما كانوا، وإلى كل الذين يتواطؤون بالفعل أو بالصمت، عن علم أو عن جهل، لنصيح مع كل المخلصين فى أنحاء العالم بكل ما أوتينا من قوة:

يأيها المسلمون، يا أصحاب الحق.. يا من يساء لدينكم وشرعكم ومقدساتكم وتنتهك أعراض نسائكم.. يا من تستباح أراضيكم ويضربونكم بأياديكم، وتتخذ من بقاعكم قواعد لضرب إخوة لكم فى الدين.. ليس أمامكم إلا أن تنسوا خلافاتكم المختلقة التى يوقعكم فيها الغرب..

يأيها المسلمون، يا أصحاب الحق، أفيقوا من ثباتكم وتخاذلكم لرفض وتغيير ما نحن فيه وما يفرض علينا بأيدينا.. هبّوا للجهاد والتغيير.. ومثلما نطالب الغرب بأن يعيش مع الشرق انطلاقا من مفهوم حضارى تكاملى، علينا أن نبدأ بتنفيذ هذه الرؤية الحضارية التكاملية فيما بيننا.. جاهدوا لرؤية ما أنتم فيه وما أنتم مساقون إليه، فليس أمامكم إلا توحيد صفوفكم سياسيا لفك الحصار المضروب حول الإسلام على الصعيد العالمى، ولصد الهجوم الضارى الذى يرمى إلى إبادته..

لقد تكشفت اللعبة بكل خباياها دينيا وسياسيا.. لقد انكشف المخطط الصهيونى الصليبى، ولم يعد أمامكم يا أحفاد صلاح الدين إلا الجهاد.. فمهما استطاع الغرب بتعصبه الدينى والسياسى الأسود أن يخدع أو يقنع بعض الحكومات العربية والإسلامية، أو أن يشترى ذممها بلىّ الأعناق، فلن يستطيع أن يمنع كل قطرة دم أهدرها من أن تتحول إلى قلب ينبض بالحياة ليقاوم ويكافح، ولن يستطيع أن يمنعها من أن تتلألأ فى أمة الإسلام ليشرق منها عماد الدين، ونور الدين، وصلاح الدين..

مارس ١٩٩٤م.

النبوءة الكوارثية التى قالها بولس لتيموثاوس
(فى رسالته الثانية)

ـ«ولكن أعلم هذا أنه فى الأيام الأخيرة ستأتى أزمنة صعبة؛ لأن الناس يكونون محبين لأنفسهم محبين للمال متعظّمين مستكبرين مجدّفين غير طائعين لوالديهم غير شاكرين، دنسين بلا حنو، بلا رضى، ثالبين عديمى النزاهة شرسين غير محبين للصلاح، خائنين مقتحمين متلصفين، محبين للذات دون محبة الله، لهم صورة التقوى ولكنهم منكرون قوتها. فأعرض عن هؤلاء، فإنه من هؤلاء هم الذين يدخلون البيوت ويسبون نسيّات محمّلات خطايا منساقات بشهوات مختلفة، يتعلمن فى كل حين ولا يستطعن أن يقبلن إلى معرفة الحق أبدا، وكما قاوم ينيس ويمبريس موسى كذلك هؤلاء أيضا يقاومون الحق. أناس فاسدة أذهانهم ومن جهة الإيمان مرفوضون، ولكنهم لا يتقدمون أكثر لأن حمقهم سيكون واضحاً للجميع كما كان حمق ذينك أيضا» (٣:١ ـ ٩).

أهم المراجع

أ ـ طبعات الخطاب الرسولي :

* Veritatis Splendor
libreria Editrice vaticana 1993
* La Splendeur De La vêrite
Introd. xavier thevenot, ed. cerf 1993
*La Splendeur de la vêrite
presentation J.-f.Brugues, êd.mame-plon 1993
La splendeur de la Verite
presentation Mgr. Jacques Jullien ed.Centurion1993

ب : مراجع عامة :

* Ambelain, Robert:
la vie secrête de saint paul .R. laffant,paris,1972
*Aubin,P.:
Dieu: pêre, Fils, Esprit . pourquoi les chretiens parlent de Trinite. paris,1975
* Bornkamm, gunther:
paul, apotre de Jêsus-christ. labor et Fides,1970
* Bucaille, maurice:
La Bille, le coran et la science seghers paris,1978
*Bultman, Rudolf:
Histoire de la tradition synoptique. le seuil,1973
Theology of the New Testament S.T.M. press ltd.1952
* Carre, olivier:
e'jslom laique. Armand collin, paris,1993
Carrel, Alexis:

l'Homme cet inconnu Hachelte, Bueros aires,1942

Casanova, Antoine:

Vatican II et L'evolution de L'eglise. ed. sociale, paris,1969

* Chalet, Jean-Anne:

Monseigneur Le felvre, Dossier Complet. pygmalion, pasis, 1976

Cleiment, Olivrier:

Uln respect têtu. ed. Nouvelle Citê, paris,1989

Delacroix, S .:

L'eglise catholiaue en face du monde non chretien. ed. grund, paris,1958

Duquesnes, Jacques:

Demain,une eglise sans pretres? ed. B. grasset, paris,1968

Garaudy, Roger:

Jntegrismes p.Laffont. paris,1990

Guenon, Rene:

Orient et occident .ed. Vega, paris,1947 - 2e.ed.

Hanson, A.Tyrell:

The poradox of The Cross in The Thought of st,paul J.S.O.T. press,she ffield, 1987

Latouche, Serge:L'Occidentalisation du monde la Dêcoüverte 1989

Lebrun Francois : les grandes dates du christanismes. larousse, Essentiels: paris,1989

Lefebevre,Mgr.: J'accuse le concile, ed. st.-gabriel.1976

Maccoby, Hyam: paul et L'invention du christianisme lieu commun, Histoire, 1987

Marc-Bonnet, Henri: la papautê contemporaime P.U.F. paris.1971-3e.êd.

Messadie, gerald:

L' incendiaire. vie de Saul,apôtre

R.laffont,paris,1991

Monteilhet, Hubert:
Rome n'est plus dans Rome.J.J. pauvert, paris, 1977
pamikkar, R.·.
le dialogue intrareligieux. paris, 1985
Pichon, ch..·.
Histoire du Vatican
soc. d'ed. Fraucaises et Jnternationales, paris,1946
Reiner, carl:
L,Homme devant Dieu. Melanges offerts au R.P. lubac.
II voiL. Aubier, paris,1964
Ries, Julien: les chearetiens parmi les religions
vol. 5- ed. Desclee, paris,1987
Schweitzer, albert:
Paul and his Interpreters The A. sch. Fellowship 1912-1984
Segumdo, Juon luis:
le christianisme de paul. le cerf,1988
Serrou, Robert:
Tempête sur L'ēglise ed. Fayart, paris,1969
Thomas, Joseph:
le Concile Vatican le Cerf, pasis, 1989
Toynbee, Arnold:
L'Histore Paris 1978
Wells, g.A. : The Historical Evidence of Jesus
prometheus Book, Buffals,1988
Encyclopedie vmiversalis ,1985
Encyclopedie Bordas, philosopuhies et Religions, paris,1980
Micro-Robert: Dictionnaire de culture generale,1990

ثبت بأهم التواريخ فى تكوين المسيحية

* ٣٠ ـ صلب يسوع (وفقا لما يعتقدونه) عشية عيد الفصح اليهودى وبداية التبشير.
* ٤٥ ـ ٤٦ ـ أول رحلة تبشيرية لبولس تحت إشراف برنابا.
* ٤٨ ـ مجمع القدس: إعفاء الوثنيين من الختان لتسهيل اعتناقهم المسيحية.
* ٧٠ ـ ٨٠ ـ صياغة أناجيل متى، ومرقس ولوقا وأعمال الرسل.
* ٩٥ـ صياغة إنجيل يوحنا ونهاية العالم.
* ١٠٩ـ الكنيسة تعلن أنها عالمية.
* ١٤٤ ـ إعدام مارسيون لاعتراضه على تحريف العقيدة.
* ١٥٤ ـ خلافات حول تحديد موعد عيد الفصح. القديس إيرينى يصوغ عقيدة الخطيئة الأولى والخلاص اعتمادا على أقوال بولس الذى لقب نفسه رسولا.
* ١٦٨ ـ فرض التبتل على الإكليروس فى روما.
* ١٦٩ ـ البابا فيكتور الأول يعلن سيادة أولوية بابا روما.
* ٣١٣ ـ الاعتراف بالمسيحية ديانة رسمية.
* ٣٢٥ ـ مجمع نيقيا الأول: صياغة عقيدة الإيمان أى مساواة السيد المسيح بالله عز وجل.
* ٣٨١ ـ مجمع القسطنطينية الأول: تأليه الروح القدس ومساواته بالله وبالسيد المسيح.
* ٤٣١ ـ مجمع أفسوس يقر الأمومة الإلهية للسيدة العذراء ويجعلها «أم الله».
* ٤٤٩ ـ ديوسكور أسقف الأسكندرية يفرض عقيدة الطبيعة الواحدة للمسيح.
* ٤٥١ ـ مجمع خلقدونيا يدين كنيسة الأسكندرية ويستبعدها نهائيا. ويقر سيادة بابا روما.
* ٥٢٠ ـ الأسقف جوليان يصوغ عقيدة عدم تحلل جسد المسيح.
* ٦٦٨ـ إقامة عيد تبجيل الصليب المقدس فى ١٤ سبتمبر بعد أن كان رمزا للتعذيب والإهانة.
* ٦٩٢ـ مجمع القسطنطينية يقر ترسيم المتزوجين وقبولهم فى الإكليروس رغم رفض روما.

* ٧٤٢ ـ مجمع جرمانى بمدينة كولونيا يطالب بعملية إصلاح للكنيسة.

* ٧٦٧ ـ سينودس مدينة جانتبى: خلافات بين الكنيسة الشرقية والغربية حول عيد الفصح.

* ٧٩٤ ـ مجمع فرنكفورت يعترض على قبول الكنيسة الشرقية فى الكنيسة العالمية، ويفرض الالتزام بيوم الأحد إجازة أسبوعية بدلا من يوم السبت الوارد فى الشرع اليهودى.

* ٧٩٦ ـ مجمع فريول يدين الكنيسة اليونانية لعدم قبولها مساواة الروح القدس بالله وبالمسيح.

* ٨٠٧ ـ فرض قبول مساواة الروح القدس بالله وبالمسيح على كنيسة القدس.

* ٨٠٩ ـ بابا فرنسا يرفض مساواة الروح القدس بالله وبالمسيح فى عقيدة الإيمان.

* ٨٣١ ـ فرض عقيدة الوجود المادى للمسيح فى القربان (الأفخارستيا).

* ٨٦٩ ـ مجمع القسطنطينية الرابع: إدانة البطريرك فوسيوس لاعتراضه على تأليه الروح القدس فى كتابه: «سر أسطورة الروح القدس» وهو أول رفض علمى لتحريف العقيدة والنص الإنجيلى.

* ١٠٢٢ ـ مجمع بافيا بإيطاليا لإعادة فرض التبتل على رجال الكنيسة.

* ١٠٤٩ ـ مجمع لاتران يمنع الاتجار بالمخلفات المقدسة.

* ١٠٧٤ ـ مجمع روما يعيد إدانة الاتجار بالمخلفات المقدسة.

* ١٠٧٥ و١٠٧٨و١٠٨٠ ثلاثة مجامع لفرض «التعليمات البابوية» وصياغة قرار سلطته المطلقة.

* ١٠٨٩ ـ مجمع ملفى لإعادة إدانة الاتجار بالمخلفات المقدسة.

* ١٠٩٩ ـ مجمع بارى: الأساقفة اليونانيون بجنوب إيطاليا يقبلون مساواة الروح القدس بالله وبالمسيح.

* ١١٧٩ ـ مجمع لاتران الثالث: إدانة الكاتار وقيام حرب صليبية ومحاكم تفتيش لاقتلاعهم، وتمت إبادتهم لما يمثلونه من خطر عقائدى على المؤسسة الكاثوليكية.

* ١٢٠٢ ـ البابا أنيوسنت الثالث يعلن سيادة الكرسى الرسولى على العالم!

* ١٢١٥ ـ مجمع لاتران الرابع: إعادة تحديد عقيدة الإيمان والحقيقة المادية للقربان

(الإفخارستيا) ومبدأ الأخلاق، وأزمة الطاعة، وتنظيم الكنيسة، وفرض مبدأ الاعتراف دوريا والمناولة سنويا.

* ١٢٢٤ ـ البابا جريجوار التاسع يقر عقوبة الحرق أحياء للمنشقين.

* ١٢٣٧ ـ أول خطاب رسولى يمنح مميزات للمبشرين.

* ١٢٤٤ ـ البابا أنيوسنت الرابع يقر مبدأ التعذيب للحصول على الاعترافات أثناء محاكم التفتيش.

* ١٢٧٤ ـ مجمع ليون المسكونى: أقر وجود المطهر وطالب بمجمع كرادلة لانتخاب البابا.

* ١٢٨٠ ـ مجمع كولونيا وفرض التعميد عند سن السابعة.

* ١٤١٤ ـ ١٤١٨ ـ مجمع كونستانس وفضيحة صكوك الغفران التى أدت إلى إقالة ثلاثة بابوات، كما أدان كلا من جون هاس وجون فيكليف لإدانتهما رجال اللاهوت فى فضيحة الصكوك، ولما أدخلوه من تحريف فى العقيدة، وتم حرقهما أحياء..

* ١٤٣٩ ـ مجمع مدينة بال يفرض الاحتفال بعيد «الحمل بلادنس» للسيدة العذراء.

* ١٥٠٩ ـ فلاسفة العلوم الإنسانية يطالبون بمسيحية أكثر قربا من النصوص الإنجيلية.

* ١٥١٧ ـ لوثر يصوغ خمسا وتسعين إدانة ضد الكاثوليكية.

* ١٥٢١ ـ حرمان لوثر.

* ١٥٢٩ ـ لوثر يصوغ كتاب التعليم الدينى البروتستانتى.

* ١٥٣٠ ـ إنشاء طائفة البرنابيين (أى أتباع برنابا الحوارى ـ النبى المستبعد).

* ١٥٣٦ ـ البروتستانتية ديانة رسمية للدولة فى الدانمارك.

* ١٥٤٥ ـ مجمع ترانط: إقرار الصيغة النهائية لعقيدة الإيمان، والكتاب المقدس والتراث والعدالة، وإضافة تعريف جديد لمعنى المناولة والأسرار، وعباد القديسين والتضحية، وإعادة إقرار تبجيل الصور بعد أن حرمها البروتستانت وإدانة البروتستانتية.

* ١٥٦٣ ـ بداية الحروب الدينية بين الكاثوليك والبرتستانت حتى عام١٥٩٨م.

* ١٥٦٦ ـ مجمع ترانط يصدر كتاب التعليم الدينى الجديد ويفرض التبتل نهائيا.

إكليروس أوروبا، ويحارب تحديد النسل والإجهاض.

* ١٧٠٠ ـ معركة الطقوس ودراسة إمكانية تعديل الطقوس الكاثوليكية وإدخال بعض المفاهيم الصينية بها لتسهيل عملية تنصير الصين!

* ١٧٨٩ ـ إعلان بيان حقوق الإنسان فى فرنسا. الاستيلاء على ممتلكات الكنيسة لصالح الدولة.

* ١٧٩٠ ـ البابا بيوس السادس يدين بيان حقوق الإنسان.

* ١٧٩٢ ـ علمنة الدولة فى فرنسا وإقرار الطلاق.

* ١٧٩٥ ـ حرية العقيدة وفصل الدين عن الدولة فى فرنسا.

* ١٨٠٩ ـ البابا بيوس السابع يحرم نابليون بونابارت.

* ١٨٥٤ ـ البابا بيوس التاسع يصوغ عقيدة «الحمل بلادنس» الذى كان مجمع عام ١٤٣٩ قد فرض مجرد الاحتفال بها.

* ١٨٦٤ ـ البابا بيوس التاسع يدين العلوم الحديثة.

* ١٨٦٩ ـ المجمع المسكونى الفاتيكانى الأول: محاربة العلوم الحديثة التى تثبت التلاعب بالنصوص الإنجيلية، وتثبت أن عمر الإنسان على الأرض ليس ٥٥٦١ عاما وفقا للتقويم الوارد بالأناجيل، وفرض سيادة البابا ومصداقيته المطلقة ومعصوميته من الخطأ، وتم فرض دستور جديد حول العلاقات بين الإيمان والعقل ـ أى عدم مناقشة العقيدة منطقيا وإنما قبولها إيمانا.

* ١٨٧٤ ـ البابا بيوس التاسع يحرم الإيطاليين من الاشتراك فى الحياة السياسية ويقصرها على الكنيسة.

* ١٨٩١ ـ إدانة الحركات الاجتماعية والتقدمية والصراع الطبقى.

* ١٩٠٥ ـ فصل الدين عن الدولة فى فرنسا للمرة الثانية.

* ١٩٠٧ ـ البابا بيوس العاشر يدين الحداثة ؛ لكشفها تحريف الأناجيل ويفرض الأصولية أى التمسك بالتحريف .

* ١٩١٩ ـ البابا بيوس الخامس عشر يفرض إنشاء إكليروس محلى فى مختلف البلدان لتسهيل عمليات التبشير.

* ١٩٢٠ ـ عودة العلاقات الدبلوماسية بين فرنسا والفاتيكان.

* ١٩٢٥ ـ البابا بيوس الحادى عشر يفرض الاحتفال بعيد «المسيح ملكا».

* ١٩٢٨ ـ البابا بيوس الحادى عشر يفرض دراسة المسائل الشرقية من أجل «الحوار».

* ١٩٢٩ ـ إنشاء دولة مدينة الفاتيكان.

* ١٩٤١ ـ أبحاث رودلف بولتمان حول التحريف فى العهد الجديد وأنه مجرد أساطير. إثبات ما تم به من تلاعب وتحريف. بداية علم نقد التفسير.

* ١٩٤٩ ـ خطاب البابا بيوس الثانى عشر حول الأماكن المقدسة فى فلسطين. الكرسى الرسولى يحرم الكاثوليك الذين يساندون الشيوعية.

* ١٩٥٠ ـ خطاب البابا حول أزمة اللاهوت والعلاقات بين العلم والإيمان. صياغة عقيدة صعود العذراء إلى السماء.

* ١٩٥١ ـ البابا بيوس الثانى عشر يفرض المسبحة على الأتباع حتى تنطبق الآيات الخاصة بالتسبيح على المسيحيين ولا تعد دليلا على مجىء الإسلام والمسلمين!

* ١٩٥٤ ـ إقرار رفع السيدة العذراء إلى رتبة «مشارك المسيح فى تخليص آلام البشر».

* ١٩٥٤ ـ ١٩٥٥ ـ تتويجها «ملكة السماء» وإقامة «عام مريمى».

* ١٩٥٩ ـ البابا يوحنا الثالث والعشرون يعيد فرض المسبحة.

* ١٩٦٢ ـ بداية المجمع المسكونى الفاتيكانى الثانى.

* ١٩٦٤ ـ إضافة لقب «أم الكنيسة» إلى ألقاب السيدة مريم العذراء. البابا بولس السادس يطالب بضرورة إجراء حوار مع العالم، والاستعانة بالكنائس الشرقية والمحلية.

* ١٩٦٥ ـ انتهاء مجمع الفاتيكان الثانى: تبرئة اليهود من دم المسيح رغم كل ما هو وارد ضدهم بالإنجيل. المطالبة بتنصير العالم وتوحيد الكنائس والاستعانة بالعلمانيين وكافة وسائل الإعلام لذلك. وإقرار ضرب اليسار وإجراء حوار مع الإسلام.

* ١٩٦٦ ـ كتاب التعليم الدينى الهولندى الذى أسقط ذكر عقيدة الإيمان والتثليث لعدم تمشيها مع عقلية الأتباع فى هذا العصر..

* ١٩٦٧ ـ إعادة فرض التبتل.

* ١٩٧٨ ـ ١٤ أكتوبر انتخاب الأسقف كارول ڤويتيلا لمنصب البابوية فى روما باسم

يوحنا بولس الثانى.

* ١٩٧٩ ـ خطابه الرسولى المعنون «يسوع مخلص البشر» الذى يوضح فيه أن الحوار يعنى «فرض الارتداد وقبول سر المسيح» وهو ما يكرره فى كل خطبه الرسولية بأساليب مختلفة لا مواربة فيها لتنصير العالم..

* ١٩٨٧، ١٩٨٨ ـ يوحنا بولس الثانى يقيم «عام مريمى» آخر، وذلك للتوغل فى الاتحاد السوفيتى توطئة للقضاء عليه ـ الأمر الذى تم عام ١٩٩١م.

* ١٩٩٣ـ خطابه المعنون «روعة الحقيقة» موضوع هذا البحث..

تعريف بالمؤلفة

* من مواليد الأسكندرية عام ١٩٣٥م .
* أستاذ الحضارة ورئيس قسم فرنسى بكلية آداب جامعة المنوفية.
* تساهم بالمقالات والأبحاث الأدبية والفنية فى المجلات المصرية والعربية منذ ١٩٦٥م.
* ساهمت فى مجلة «إيماج» (باللغة الفرنسية) بالمقالات الفنية والأدبية، وبأبحاث عن ألفية القاهرة عام ١٩٦٧، ١٩٦٨م.
* منذ الثمانينات بدأت تكرس جهودها لنقل موقف الغرب من الإسلام، وبخاصة ما يكتب فى فرنسا التى تتولى الإنفاق على ثلثى عملية التبشير فى العالم!
* ساهمت فى عدة مؤتمرات فى مصر والمغرب دفاعا عن الإسلام.
* فنانة تشكيلية ـ تشارك فى المعارض العامة منذ ١٩٥٥م.
* حصلت على منحة تفرغ من وزارة الثقافة لتصوير النوبة وأسوان عامى ١٩٧١، ١٩٧٢م.
* أقامت أربعين معرضا خاصا فى مصر والخارج.
* اسمها مدرج فى أربع موسوعات عالمية كأستاذة جامعية وباحثة ، وكفنانة تشكيلية.
* عضو بنقابة الفنانين التشكيليين.
* عضو بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية ـ لجنة الفكر الإسلامى والقضايا المعاصرة.

أ ـ مؤلفات أخرى:

* يوميات فنان ـ دار المعارف ـ ١٩٧١م.
* فولتير رومانسيا ـ الهيئة العامة للكتاب ـ ١٩٨٠م (بالفرنسية).
* لعبة الفن الحديث ـ أبيبس ـ ١٩٨٤م ـ (بالفرنسية).
* لعبة الفن الحديث بين الصهيونية ـ الماسونية وأمريكا ـ دار الزهراء للإعلام العربى ـ ١٩٩٠م.
* النزعة الإنسانية عند ڤان جوخ ـ الهيئة العامة للكتاب ـ ١٩٩٣م.
* محاصرة.. وإبادة، موقف الغرب من الإسلام ـ المؤسسة الجامعية ـ بيروت ـ

١٩٩٣م.

* ترجمات القرآن إلى أين؟ وجهان لجاك بيرك ـ دار الهدى ـ ١٩٩٤م.

ب ـ ترجمة (إلى العربية):

* الإسلام وحضارته ـ كتاب أندريه ميكيل ـ المكتبة العصرية بيروت ـ ١٩٨١م.

* الريح ـ رواية كلود سيمون (جائزة نوبل) ـ دار الهلال ـ ١٩٨٦م.

* التعسف فى استخدام الحق ـ د. محمود فتحى، رسالة دكتوراه فى القانون الإسلامى من فرنسا عام ١٩٢٧م ـ المؤسسة الجامعية ـ بيروت ـ ١٩٩٤م.

* الإسلام الراديكالى ـ إيتيين برونو ـ (تحت الطبع) دار الزنابيلى ـ مالطة .

* هيجل والمسيحية ـ الأب جاستون فيسار ـ (تحت الطبع) دار الزنابيلى .

الفهرس

الموضوع	الصفحة
* المقدمة	٧
* **الباب الأول**: «روعة الحقيقة» ــ عرض وتقديم	٩
* **الباب الثانى**: تعليقات الصحافة الفرنسية	٢٧
* **الباب الثالث**: تعليق على الخطاب من خلال خمسة محاور أساسية	٤١
ــ العقيدة (التثليث، يسوع، الأسرار، الأناجيل، الوصايا)	٤٥
ــ الأزمة الكنسية(بولس، الرسول، المجامع، الكاثوليكية، المجمع المسكونى الفاتيكانى الثانى والأزمة)	٦٧
ــ البابا يوحنا بولس الثانى (دوره السياسى وموقفه المزدوج)	٨٦
ــ تنصير العالم (المخطط الذى يتم تنفيذه حاليا)	٩٦
ــ الحوار (أداة لفرض الارتداد واعتناق المسيحية)	١٠٦
* **الخاتمة**: المطالبة بحوار تكاملى بين الشرق والغرب	١١٣
* النبوءة الكوارثية	١٢١
* أهم المراجع	١٢٣
* ثبت بأهم التواريخ فى تكوين المسيحية	١٢٧

رقم الإيداع :١٠٥٥٩ / ١٩٩٤م

I.S.B.N:977-15-0144-5

مطابع الوفاء - المنصورة

شارع الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت:٣٤٢٧٢١/٣٥٦٢٢٠/٣٥٦٢٣٠

ص.ب: ٢٣٠ فاكس٣٥٩٧٧٨

هذا الكتاب

* يمثل المجمع المسكونى الفاتيكانى الثانى ١٩٦٥م نقطة تحول جذرية بالنسبة للمجامع السابقة ، فهو يعد بمثابة أول مجمع هجومى تتخذ فيه عدة قرارات لا سابق لها ، منها : توصيل الإنجيل لكافة البشر ، وهى الصيغة المعلنة آنذاك لعملية تنصير العالم .

* وقد تم انتخاب البابا يوحنا بولس الثانى لتسهيل تنفيذ هذا المخطط الذى بدأ بضرب حلف وارسو وإنشاء حزب تضامن فى بولندا ... وتتم الآن محاولة اقتلاع الإسلام على الصعيد العالمى وإن كان بحجج ووسائل مختلفة، الأمر الذى يفسر التباطؤ الرهيب فى حل مشكلة البوسنة على سبيل المثال .

* وفى عام ١٩٨٢م أعلن البابا يوحنا بولس الثانى صراحة عن ذلك المخطط ، ليطالب بضرورة « إعادة تنصير العالم » ، واتخذ هذه العبارة محورا أساسيا لكافة خطبه التى أدخل فيها عبارة « الحوار » والتى تعنى عنده «فرض الارتداد لاعتناق المسيحية » .

* وهذا الكتاب عبارة عن دراسة تحليلية موجزة للخطاب الرسولى الأخير الذى أعلنه البابا يوحنا بولس الثانى فى شهر أكتوبر سنة ١٩٩٣ م ــ نقدمه بين يدى جمهور المسلمين ، حتى يكونوا على دراية بما يحاك لهم وبما يحيط بهم من حرب صليبية غير معلنة ، كما نقدمه للإخوة المسيحيين فى العالم الإسلامى حتى لا يقعوا فى هاوية التواطؤ جهلا أو عن عمد .

* ودار **الوفاء** وهى تتقدم بهذا الكتاب إلى قرائها الكرام تسأل الله أن يحق الحق وهو الهادى إلى سواء السبيل ،

الناشر



دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع ـ المنصورة ش.م.م

الإدارة والمطابع : المنصـورة ش الإمام محمد عبده المواجه لكلية الآداب

ت ٣٤٢٧٧٢١/ ٣٥٦٢٢٠/ ٣٥٦٢٣٠

المكتبة : أمام كلية الطب ت ٣٤٧٤٢٣ ص ب . ٢٣٠ فاكس ٣٥٩٧٧٨

تطلب جميع منشـوراتنا من :



دار النشر للجامعات المصرية ـ مكتبة الوفاء

٤١ ش شريف ت : ٣٩٣١٢٣٤/ ٣٩٣٤٦٠٦ . فاكس ٣٩٢١٩٩٧